د. عدنان علي رضا النحوي

تقويم نظرية الحداثة

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار النحوي للنشر والتوزيع

الدكتور عدنان علي رضا النحوي

تقويم نظرية الحداثة

دار النحوي للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م

دار النحوي للنشر والتوزيع
تلفون وفاكس ٤٠١٠٢٥٧ - ص.ب ١٨٩١ - الرياض ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

* إلى المؤمنين العاملين والدعاة الصادقين ،

* وإلى المؤمنين المتفكّرين المتدَبّرين ،

لينظروا في الواقع فيجدوا العبرة والعظة،

فيزدادوا إيمانا وعلماً .

* وإلى أهل الحداثة لينظروا في الواقع كذلك ،

وليروا ، ولنرى جميعنا ، أن في الإسلام بيانا

لكل طالب حقّ ،

وغناءً لكل طالب حاجة ،

وبلاغاً للعالمين .

الافتتاح

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ (الأحزاب: ٧١)

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

(الحشر: ١٨ ، ١٩)

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ :

«إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم». (رواه مسلم)

كتاب البر (٤٥)، باب (١٠) حديث ٢٥٦٤ / ٣٤

المقدمة

أُعِدَّ هذا البحث أولاً للملتقى الدولي الأوّل للفن الإسلامي الذي عُقد بقسنطينة في الجزائر، والذي دعت إليه «جامعة عبد القادر الإسلامية» في مدينة قسنطينة، وأشرف عليه «نادي ابن النفيس» في الجامعة خلال الفترة (٨ ـ ١٣) جمادى الأولى سنة ١٤١١هـ الموافق (٢٥ ـ ٣٠) تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٩٠م.

وقد حدَّد الملتقى عنوان البحث: «تقويم نظرية الحداثة». ولقد كنت أعتبر أن كتابي: «الحداثة في منظور إيماني» في طبعته الثالثة المزيدة والمنقحة يجيب على جوانب من هذا الموضوع، تقويم نظرية الحداثة، وإن كان لا يطرقه مباشرة.

وأثناء إعداد البحث وجدت أن هنالك جوانب أُخرى تحتاج إلى توضيح حتى تتكامل قواعد التقويم. فهنالك الأسس التي يجب أن يقوم عليها التقويم، وهنالك توضيح منطلق الحداثة وأسس نظريتها إن كان لها نظرية، وهنالك معنى النمو والتطور في التصوّر الإسلامي ومقارنته مع التطور والتغيير الذي تدعو إليه «الحداثة»، وغير ذلك.

لا نستطيع أن نُنكر أنَّ «الحداثة» بكل أُسُسِها ومفهوماتها العربيّة تسللت إلى واقع المسلمين خلال عشرات السنين تسلُّلاً خفيّاً مدروساً. ثمّ نمت وترعرعت كما ترعرعت سائر الأفكار الوافدة من شيوعيّة وديمقراطية وغيرهما، حتى احتلّت مراكز وتصدّرت مواقف في العالم الإسلامي.

لذلك أصبح من الضروريّ دراستها دراسة أمينة عادلة، حماية لأمتنا وديارنا من أي أفكار مضطربة تزحف مع زخارفها ومغرياتها. وإن أقوى حماية وصون هو الصدق والحقُّ، وعرض الأمور على حقيقتها دون مغالاة يدفع إليها الهوى والحبُّ أو البغض.

والحداثة ومصادرها الأصلية ونصوصها الثابتة لا تدع حاجة لأحد أن يفتري عليها. فقد تحمل بعض النصوص زخارف تدغدغ العواطف والحماسة، وتغري أوّل وهلة، حتى تحسب أن بين يديك شيئاً. وقد تحمل بعضُ النُّصوص غموضاً يوحي بأهمية النصّ، أو يثير الالتباس لدى بعض الناس، حتى تحسب أن وراء ذلك شيئاً. ولكنّك إذا دققت وتمعّنت يختلف الحال.

ولا نفتري على أحدٍ من رجال الحداثة بظلم أبداً. ولكننا ندرس الحداثة ونقومها من نصوصها الثابتة ومصادرها الحقيقية، ونبذل الجهد الصادق الأمين، ونتحرّى الحقَّ لنقول الكلمة الأمينة الناصحة، لننصح أنفسنا فنتحرّى الحق، ولننصح رجال الحداثة ليراجعوا فكرهم ونهجهم، أو كلمتهم ونصّهم، فكلُّ بني آدم خطاء وخير الخطّائين التوّابون، كما يقول رسول الله ﷺ. ولا يستنكف عن مراجعة نفسه إلاَّ كلُّ مستكبر من الناس. ولكن المسلم لا يستكبر، ويعود إلى جوهر الفطرة وجلال الإيمان، وعظمة القرآن والسنّة، فيردّ إلى ذلك كله كلمته ورأيه وموقفه، فيرجع عن الخطأ أو الباطل، ويلتزم الحقَّ واليقين. فالمسلم يتعلم من دعاء الرسول ﷺ ما يعينه على بلوغ الحق إن شاء الله:

«اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه».

وفي كتاب الله آيات بيّنات تذكّر وتوقظ:

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. (الزمر: ١٧، ١٨)

إننا كلنا مدعوّون إلى أن نراجع كلماتنا وآراءنا ومواقفنا، لنردَّها إلى منهاج الله قرآنا وسنَّة، إلى الحقّ الذي نزل من عند الله، وحياً على نبيّه وعبده محمد ﷺ، إلى الحقِّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليكون هو نبعنا الغنيّ الذي يمدُّ الإنسان دائماً بالنور والهُدى، وليكون فيه غناؤنا، ونُقَدِّم به، نحنُ المسلمين، للغرب وللشرق، وللبشريّة كلها، عظمة الفكر الإنساني في جمال الحقِّ وجلال الإيمان، ولنقدِّم عبقريّة النصح، حتى يجد الإنسان حقيقة العزّة والكرامة باليقين الحقِّ والعبودية لله ربّ العالمين.

إننا نقدّم بهذه الدراسة بحثاً علميّاً بعيداً عن الظنون والأوهام، يعتمد النصَّ الثابت والمصدر الواضح. فلا نتهم أحداً بظلم إلّا أن يُدِين الرجلُ نفسَه بصريح نصِّه وبيانه، أو أن يقوم على ذلك من الله برهان.

لقد أعددت هذه الدراسة للملتقى الدولي الأول للفنّ الإسلامي الذي عُقد في مدينة قسنطينة في الجزائر، كما ذكرت سابقاً. ولقد قدّمت هذا البحث عند إلقائه بكلمة أضمها لهذا الكتاب تحت عنوان تمهيد. وكان من عون الله تعالى أن لاقى هذا البحث تقدير الملتقى ورجال الفكر والأدب الذين حضروه من مختلف أنحاء العالم العربيّ، وأشارت الصحف بعد ذلك إلى هذا التقدير.

وأَغتنم هذه المناسبة مع هذه المقدّمة لأُشير إلى قضيّة لغوية اختلط أَمرها عند بعض الناس، حتى حاروا أَي اللفظين أَصح: التقويم أَم التقييم. فالصحيح هو التقويم، حسب ما تثبته معاجم اللغة العربية.

ففي معجم مقاييس اللغة: «قَوَّمْتُ الشيء تقويماً، وأَصل القيمة الواو. وبلغنا أَن أَهل مكة يقولون استقمت المتاعَ أي قوّمته». وفي الصحاح: «والقيمة واحدة القِيَم. وأَصله الواو لأَنَّه يقوم مقام الشيء. يُقال قوّمت السلعة. وأَهل مكة يقولون استقمتُ السلعة وهما بمعنى. وقوّمت الشيء فهو قويم أي مستقيم.» وكذلك في القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس.

ندعو الله خاشعين له أَن يتقبل منا عملنا نقياً من شوائب الدنيا وغرورها، وأَن يهدينا سبيل الرشاد وكلمة السداد، والعمل الطيب والكلمة الطيبة. ونسأَله سبحانه وتعالى أَن يجنبنا مزالق الزلل، وأَن يهبنا عزائم القوّة، وأَن يغفر لنا ويثبتنا على الحق، إنه هو السميع المجيب.

د. عدنان علي رضا النحوي

الرياض: ١٥/ ٦/ ١٤١١هـ
١/ ١/ ١٩٩١م

تمهيد

إِن الحمد لله نستعين به ونستغفره ونتوب إِليه، وندعوه وحده، ونسأله الرشاد والسداد والثبات على الحق.

أَشهد أَن لا إِله إِلا الله وحده، لا شريك له، رب السموات والأَرض ورب العرش العظيم، رب العالمين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه وتعالى عما يشركون علوّاً كبيراً.

وأَشهد أَن محمداً رسول الله، عبده وصفيّه، خاتم الأَنبياء والمرسلين، بلّغ الرِّسالة وأَدى الأَمانة، حتى لا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل. اللهم صلّ على نبيّك محمد، وسلّم عليه تسليماً كثيراً، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإِحسان إِلى يوم الدين.

يدور هذا البحث حول «تقويم نظرية الحداثة». وهو بحثٌ فكريٌّ أَدبيّ، لا أَبحث فيه بحثاً معزولاً عن سائر ميادين الدعوة الإِسلامية، ولا مفصولاً عن مصادر الطاقة التي تُغنيه، ولكنني أَبحث فيه من منطلق الإِيمان والتوحيد، حيث ترتبط في هذا المنطلق جميع الميادين، وحيث تتكامل الجهود وتتناسق، وتجمعها كُلُّها النيَّةُ الصادقة لله سبحانه وتعالى، ويدفعها الصراط المستقيم، وتجلوها الأَهداف المشرقة. كلُّ ذلك في ساحة الإِيمان الصادق والتوحيد الخالص. ولا شيء في حياة الإِنسان يجمع هذا الجمع، ويدفع هذا الدفع، ويجلو هذا الجلاء إِلا الإِيمان والتوحيد.

لا يحقُّ لنا اليوم أن نعتبر الأَدب والفكر ساحة متعة واسترخاء، ولا ساحة تنافس وبيان. فالأَدب والفكر في ميزان الإِسلام قوة وسلاح، وملحمة وجهاد.

فعن أنس رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم». (رواه أبو داود)[1]

والتنافس لا يكون إلا في طاعة الله وعبادته والجهاد في سبيله. فمن هذا المنطلق يريد الإِسلام لجنوده وأَبنائه أَن يصوغوا أَدبهم، ويدفعوا كلمتهم، طاهرة نقيّة، واضحة غنيّة.

وأُمتنا اليوم تحيط بها الأَخطار من كلّ جانب، حتى كأَن أَعداء الله يريدون اجتثاث دين الله من جذوره إن استطاعوا ولن يستطيعوا. فمنذ أَن بعث الله محمداً ﷺ وحربُ المشركين ممتدّة، تبدأ من عندهم وتمتدُّ بهم، وتجمع في ساحها أَعداء الله كلهم: المشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

من هنا يتحدد اليوم دور الكلمة في الإِسلام، ودور الأَدب في واقعنا اليوم، ليساهم في بناء أمة الإِسلام وتحقيق نصرها، وليكون أَدباً عزيزاً في أُمّة عزيزة:

إنه أَدب الإِســـ	ـلام غَرْسُ الإِيمان ريُّ العُهود عِزَّةٌ فيه[2]
يا إِباءَ القصيد يَرْفَعُه الصِّدْ	قُ فَيَرْقَى إلى مَطَـــاف خُلودِ
لا يَسِفُّ الهَوى ولا يهبطُ الحِـ	ـسُّ ولا يَنْحَني لعضِّ قُيود

(١) سنن أبي داود. كتاب الجهاد (٩). باب (١٨). حديث رقم (٢٥٠٤).

(٢) أبيات من قصيدة: مهرجان القصيد في كتاب الأَدب الإسلامي إنسانيّته وعالميّته.

شرَفُ القَول مِنْ هُدَى الحقْـ ـقِ وسِحَر البَيَانِ بالتوحيدِ
أَدَبٌ يَرْتَوي البَيَانُ لَدَيهِ من «حديثٍ»، من الكتاب المجيدِ
رفَّ بالطيب عُوْدُه فَتمنَّى كُلُّ روضٍ نَدَاوةً مِن عودِ
ينشُرُ الجوهَرَ الكريم على الدهْـ ـرِ غَنيّاً باللؤلؤ المنضودِ
أَدَبٌ شَعَّ في الليالي مع العَزْ مِ زَكَا عِطْرهُ دَماً مِن شهيدِ
كم جَلاه على الميادينِ فُرْسا نُ وغَنّتْهُ وثْبَةٌ مِن صِيد
فانهضي يا روائع الشعر هذي سَاحَةٌ غَرِّدي لها وأَعِيدي
أنتِ في ذروة البَيان عطاءٌ زاخرٌ بالهُدى وأَبْحُرُ جُودِ

إننا نقدِّم في هذا البحث دراسة علميّة تخضع للنهج الذي سنعرضه في الفصل الأول. ونرغب أن نؤكد أننا لا نهدف من هذه الدراسة تجريحاً لأشخاص. ولكننا نسوق نصوصاً من مراجعها، ونردّها إلى منهاج الله. فليست اللفظة هي التي نحاكمها ولكنه المنهج والمحتوى.

وإننا نطرح ما نقدمّه من رأي من خلال الدراسة والعلم والحوار، بعيدين عن الإثـارة والضجيج. وإننـا نقدِّم رأينا ونحن نحْمِل أُصفى شعور إن شاء الله، نبتغي وجه الله والدار الآخرة، وندعو الناس جميعاً إلى كلمة سواء، وإلى الحق الذي نزل من عند الله ونتألف القلوب عليه.

ليست اللفظة «الحداثة» أو «المعاصرة» أو «الأصالة» أو غير ذلك من الألفـاظ هي محور البحث والدراسة والرأي. فالمصطلح وجهة نظر قد تختلف فيه الآراء ما دام لا يمسُّ اللغة والدين والإيمان.

الباب الأول

أسس التقويم ونهجه والمصطلح والتعريف

الفصل الأول

أُسس التقويم ونهجه

انتشرت كلمة «الحداثة» في واقعنا اليوم بين بريق لها عند بعض الناس، وعتمة عند آخرين، وبين نفور أَو إِقبال، وتأييد أَو إنكار. ربَّما كان هنالك عدة أَسباب لتناقض المواقف. فالتأييد ينشأ من التقاء النهج والأَهداف، والمعارضة تنبع من تضارب في ذلك، هذا هو الأَساس. ولكن تناقض المواقف امتدَّ إلى الأَرض الواحدة، والجبهة الواحدة والفكر الواحد. هذه هي الظاهرة الجديدة البارزة في واقعنا. ولهذه الظاهرة نفسها أَسباب مختلفة: أَحدها أَن فريقاً تأَثَّر بالمعنى اللغوي لكلمة الحداثة، وما يرافقها من ظلال مشرقة، جعلت بعض الناس يحسبونها السعيَ إِلى الجديد المفيد للأُمة في واقعها ومسيرتها. ورأى فريق آخر انفصالَ هذه اللفظة اليوم واقعياً عن معناها الموضَّح في المعاجم، بعد أَن حدَّدته حركاتُ أَدبيةٌ، وفكرية وفلسفية، ظهرت في واقع الإنسان، وسُميّ عطاؤها «بالحداثة». وسبب آخر للتضارب بين وجهتي النظر هو اضطراب الميزان أَو اختلافه بين الفريقين. ولا بأس في أَن نضيف سبباً ثالثاً قد لا يظهر أَحياناً وقد تخفى آثاره أَحياناً أُخرى، ذلك هو ضغط الواقع في هذا المجتمع أَو ذاك، ضغطاً تتنوَّع أَلوانه، وتتبدّل معالمه. وقد يكون من معالم هذا الضغط تسلل الفكر الحداثيّ نفسه أَو بعض زخارفه إلى قلوب كانت منكرة له قبل حين.

أَما نحن هنا فنتحدث منطلقين من أَربع قواعد أَساسية نعْتَقِدُ أَنها ضرورية للوصول إِلى تقويم أَمين وحكم عادل. هذه القواعد هي:

أَولاً: محاولة فهم الحداثة ـ إِن أَمكن ذلك ـ من دعاتها وجنودها وقادتها، من مذاهبها واتجاهاتها، حتى لا تُظلمَ أَو يُفْتَرَى عليها، فحسبُها أَنها ظلمتْ نفسَها.

ثانياً. اتخاذ ميزان واحد ثابت في تقويم الأُمور وتحديد الأَحكام، حتى لا يقع تناقض واضطراب. هذا الميزان الثابت هو ردّ الأُمور إِلى منهاج الله، قرآناً وسنَّةً ولغةً عربيةً، فذلك هو ميزان الإِيمان والتوحيد.

ثالثاً: إِن الدراسة والتقويم يتناولان «الحداثة» من واقعها العمليّ، ومن تاريخها الحقيقي، ولا يعالجان «الحداثة» من آمال وأَحلام، ولا أَمانيّ وأَوهامٍ.

رابعاً: إِننا لا ندرس بيتاً من الشعر ولا عدداً من الأَبيات ولا عدداً من القصائد أَو الروايات، ولا موقفاً محدداً أَو عدداً من المواقف. إننا، في هذه الدراسة والتقويم، نبحث عن نهج ممتدّ. لذلك ندرس الخصائص الغالبة التي لا يعطلها مخالفة هنا أَو هناك، مخالفة لا تلغي روح النهج والامتداد. فلكل قاعدة شواذ، ولكل نظرية استثناء.

وإذا ذكرنا في القاعدة الأُولى : « . . . . محاولة فهم الحداثة إن أمكن ذلك، . . . » فلأَنَ الحداثة حملت معها الشيء الكثير من الاضطراب والغموض، والحيرة والشك، كما سيظهر معنا من خلال الدراسة، لدى دُعاتها أنفسهم ولدى الناس عامة كذلك.

هذه هي الأُسس الأَربع التي سيقوم عليها تقويم ما يُسَمَّىٰ نظرية الحداثة.

أما منهج التقويم فإنه يبدأ بالمصطلح ذاته، باللغة الأَجنبية التي صدر عنها، ثم بترجمته إلى اللغة العربية، لنرى من المصطلح وترجمته ابتداء التضارب والغموض. ثمَّ ننتقل إلى تعريف الحداثة بين رجالها وخصومها، لنرى شدّة التضارب والغموض عند أَهل الحداثة أَنفسهم. ولو أَن المصطلح والتعريف حملا مفهوماً واضحاً محدداً لأَمكن أَن نتوقع شيئاً من الخير ولو قليلاً من أَمر واضح ٍ ولكن الخطر يكمن في هذا الغموض ومحاولة الاختفاء.

وإذا كانت الحداثة تنطلق من رغبة النموّ والتطوّر والتغيير فهل للنمو والتطور والتغيير منهج واحد في حياة الإنسان؟! وهل النمو والتطور هُما شران دائماً؟! وهل التغيير لا يكون تغييراً إلا إذا تبنّى الانفصال والانفصام والانقطاع عن الماضي؟! فالتغيير الذي تحاول الحداثة أَن تدعيه لنفسها لابُدَّ من أَن نزنه بميزان الإِسلام، ونردّه إلى منهاج الله، لنرى سُبُل النمو والتطور كلها في حياة الإنسان على

الأرض، ولنرى أيها أنفع وأبقى.

وحتى تتضح الصورة على نحو جليّ قويٍّ نعرض منهج الإسلام، ونهج الإيمان في التغيير والنمو والتطوّر في الجهد البشري، حتى تسهل المقارنة بعد ذلك ويسهل التقويم.

نعتقد أن هذه هي القضايا الأُولى التي تنطلق منها الحداثة إلى عالم الظلام والشك بعد ذلك. هذه القضايا الأُولى التي سنعرضها كما ذكرنا هي: المصطلح، التعريف، التغيير، فهي تلقي الضوء على منطلق الحداثة واتجاهها، وتوّفر لنا الاطمئنان إلى سلامة الأُسس التي وضعناها للتقويم وعدالة النهج الذي نتبعه. ومع كل خطوة نخطوها ستكون الأُسس كلها تعمل معاً على النهج المقرر. وبمقدار ما تكون هذه الأُسس مألوفة للقارىء الكريم، ستكون في الوقت نفسه أقرب إلى تقديره وأيسر على المتابعة والمحاكمة.

فإذا خطونا هذه الخطوات يصبح من الواجب أن نتتبَّع الحداثة في ميادينها المختلفة من فكر وعلوم إنسانية وعلوم تطبيقية، وفنون وأدب، وسياسة واقتصاد، وفكر وأخلاق. وسيكون هذا التتبع موجزاً، ولكن نرجو أن يكون واضحاً. وسيكون موجزاً لأن تفصيلات أوسع ترد في كتابنا «الحداثة في منظور إيماني»، إلا أننا نطرق هذه الميادين هنا من منطلق التقويم لا مجرَّد الدراسة والبحث. وسنجد من خلال هذا العرض امتداد الحداثة بين أقطار أوربا

المختلفة وأمريكا والاتحاد السوفياتي، ليموج دعاتها ومذاهبها في قلب العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي، على صورة تدعو للتأمل والتدبّر، ولتجد فرصتها للنمو هنا وهناك، ولتلتقي على نقاط محددة في كلا الميدانين، على اتساع الخلاف بين العالمين: المادي الرأسمالي والمادي الشيوعي.

وإن كانت النقاط التي تلتقي عليها الحداثة في هذين العالَمين تثير الدهشة والتأمل، فإن الدهشة تزداد حين نرى الحداثة تنتقل إلى الأقطار الإسلامية، وحين يمتّد تأثيرها إلى الواقع الإسلامي اليوم، ولتأخذ مكانة فيه، وتصبح قضية تثير الدراسة والبحث. وأثناء دراستنا هنا سنمضي على نفس الأسس التي عرضناها للتقويم، حتى نظل أقرب للتقوى وأبعد عن الافتراء. ونخلص بعد ذلك إلى تعريف «الحداثة» تعريفاً ينسجم مع النهج الإيمانيّ في الدراسة والتحليل، وينسجم مع الأسس التي يقوم عليها النهج، ومع الحقائق التي نعرضها.

ومن أكثر القضايا التي يدور حولها الخلاف هو قضية بداية الحداثة. متى بدأت؟! وعلى هذا السؤال إجابات كثيرة مختلفة. فمنهم من يعيدها إلى القرن السابع عشر والثامن عشر، ومنهم من يعيدها إلى القرن التاسع عشر، نصفه الأول أو نصفه الثاني، ومنهم من يعتقد أنها ابتدأت في أوائل القرن العشرين.

ولكننا نجيب في دراستنا هذه عن هذا السؤال بأن الحداثة بخصائصها الأساسية ابتدأت منذ عهد بعيد جداً. أما تسميتها «بالحداثة» فهي التي يمكن أن يُخْتَلفَ على بدايتها لأنها تمثّل هذه الخصائص في حركتها في العصور الحديثة. وسنبّين في الفصل المقبل متى بدأت الحداثة بخصائصها لا بتسميتها.

كما نُحبُّ أن نبيّن هنا أن من خصائص نهجنا في هذه الدراسة الإيجازَ الذي لا يخلّ بالوضوح، حتى نقدِّم للقارىء الكريم صورة يسهل متابعتها.

وهذه الدراسة في أصلها بحثٌ أُعِدَّ لمؤتمر، فلا يعقل أن تمتدّ به التفصيلات الواسعة والدقيقة. ونحن ندرك أن بعض القضايا التي نعرضها هنا بإيجاز تستحقُّ بحثاً مستقلاً مفصّلاً، وبعضها الآخر سبق دراسته في كتابنا السابق الذكر: «الحداثة في منظور إيماني».

الفصل الثاني

الحداثة بين المصطلح والتعريف

لم تكن لفظة «الحداثة» هي الكلمة التي رافقت هذه الظاهرة الفكرية والأدبية منذ بدايتها القديمة التي نعتقدها، والتي سنعرض لها بعد قليل. ولكن هذه الكلمة ظهرت حديثاً في عالمنا الإسلامي ترجمة لكلمتين أجنبيّتين رافقتا هذه الظاهرة الفكرية الأدبية في انطلاقتها الحديثة في أوروبا فالمصطلح في أساسه أجنبيٌّ عن اللغة العربية، أوروبي المنشأ، ظهر في معظم لغاتها كالإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها، ففي اللغة الإنكليزية عُرِف مصطلحان هما: «Modernism» و «Modernity»، وفي اللغة الفرنسية عرف المصطلحان المرادفان القريبان من هاتين اللفظتين.

أما المصطلح العربيّ وهو «الحداثة» فقد امتد حتى إنه لم يعد ينحصر في المعاني المقررة في معاجم اللغة العربية. فالكلمة في أصلها تحمل معانٍ وظلالاً تتعلق بالشباب والجدة مما فصلناه في كتابنا «الحداثة في منظور إيماني» فالمعنى الاصطلاحي، كما حدده رجال الحداثة أنفسهم، حسب النصوص التي نوردها بعد قليل، امتد في ظلاله ومعانيه ليدل على مذاهب فكرية وأدبية جديدة، لها خصائصها المحددة في كتب رجالها ودعاتها. فحين تبين المعاجم أن معنى الحداثة: أول الأمر، الشباب وأول العمر ونقيض القديم، فقد انطلق المصطلح في آفاق فكرية وأدبية، تمثلها حركات ومذاهب امتدت بين فرنسا وإنكلترا وأمريكا وألمانيا وإيطاليا وروسيا، حسب ما ستوضحه هذه الدراسة.

لقـد عانينـا كثـيراً في واقعنا اليوم من اضطراب المصطلحات المترجمة عن اللغات الأجنبية في كثير من شئون حياتنا، وبخاصة في الأدب والفكر. ونضرب مثلاً على ذلك بكلمة «الملحمة» المترجمة عن كلمة «EPIC» الإنجليزية أو «EPICUS» اليونانية. وإذا كانت كلمة «EPIC» تحمـل مفهـوماً واضحاً محدداً بالنسبة لليونان والغرب عامة، فإن كلمة «ملحمة» العربية الإسلامية لم تحمل في الأدب العربي معنى محدَّداً معترفاً به بعـد. ولقـد عرضتُ تصوّراً للملحمة الإسلامية في كتاب «الأدب الإسـلامي إنسـانيتـه وعالميته» وفي «ملحمة الجهاد الأفغاني» في طبعته الثالثة، وناقشت الموضوع في بعض المجلات والصحف المحلية والخارجية.

وكـذلـك كلمـة «الاستعـمار» فهي ترجمـة لكلمـة «Colonisation» الإنجليزية. وهنـالك فرق كبير في المعنى والظلال بين الكلمة العربية والأجنبية. ففي العربية هي لفظة غنيّة قرآنيّة تحمل أجمل المعاني. إنها إحدى ظلال الأمانة التي يحملها الإنسان على الأرض، تكليفاً من الله سبحانه وتعالى. إنها عمل الخير والصلاح والعمارة في الأرض، لا عمل العدوان والاحتلال والظلم. ففي سورة هود:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾.

(هود: ٦١)

«واستعمركم فيها»، أي طلب منكم عمارتها بحضارة الإيمان والصلاح، ثم تعود بعد ذلك إلى ربّها وخالقها.

وكلمات أخرى ومصطلحات عديدة ماتزال تحتاج إلى تحديد وت واضح يرفع اللبس والغموض. إلا «الحداثة» فإنها معجونة بالغ والاضطراب مصطلحاً ومعنى وحركة. لذلك نبدأ بدراسة المص وترجمته.

١ ـ الاضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته:

وأول ما يجب أن تتناوله الدراسة والتقويم هو المصطلح نة وعلاقته بالمصطلح الأجنبي الذي هو الأساس. ففي اللغتين الإنج والفرنسية على الأقل انتشرت لفظتان «Modernity» و «dernism» واختلفت الترجمة العربية بين: الحداثة، والعصرية، والمعاصرة. أ المعاجم فيكاد يكون الفرق ضيقاً في الترجمة. ففي المعجم نجد ت كلمة «Modernism» بـ تعبير أو استعمال عصري، العصرانية، و-der nity» بالعصرية أو كون الشيء عصرياً. إلا أن المعجم يضيف على م كلمة «Modernism» بأنها حركة في الفكر الكاثوليكي لتأويل تع الكنيسة على ضوء المفاهيم العِلميَّة والفلسفية السائدة في القرن التا عشر وأوائل القرن العشرين، وكذلك بأنها نزعة لاهوتية تحرري «البروتستنتية»، وأيضاً بأنها نزعة في الفن الحديث تهدف إلى قطع الد بالماضي[١].

---

(١) قاموس «Webster» (ص: ٧٦٣). قاموس المورد (ص: ٥٨٦). طبعة ١٩٨٥م.

إلا أن الدكتور محمد مصطفى هدارة يترجم كلمة «Modernity» بالمعاصرة في مقالة له نشرتها مجلة الحرس الوطني[1]، وبالعصرية في محاضرة له عن «الحداثة والتراث». ويعتبر أن هذه الكلمة تعني إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة والمتراكمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن. أما كلمة Modernism فيترجمها «بالحداثة» ويقول إنها مذهب أدبيّ، بل نظرية فكريَّة لا تستهدف الحركة الإبداعية وحدها، بل تدعو إلى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية والاجتماعيَة والاقتصادية.

ولكن محمد برادة يعكس الترجمة ويختلف في المفهوم، حين عبَّر عن ذلك في مقالته التي نشرتها مجلة «فصول» والتي خصَّصتْ عددين كاملين للحداثة، حيث يقول: « . . . . تأخر ظهور «الحداثة» «La Modernite» إلى منتصف القرن التاسع عشر، مع أن «العصرية La Modernisme » بدأت ممهّداتها في أوروبا منذ القرن السادس عشر» .[2]

أما الدكتور كمال أبو ديب فيختلف عن ذلك حين يقول في مقالته في مجلة فصُول: «ولقد اقترحت في عمل سابق ترجمة المصطلح «Modernism» بـ «الحداثـيّة» ولأن Modernism حركة مميَّزة، بل مذهب أو مدرسة . . . . . . أما «Modernity» فإني سأستخدمها استخداماً عاماً بوصفها إشارة إلى سمات حضارية معيَّنة. ويبدو لي أن «الحداثة» هي المصطلح الأقرب إلى تحديد مفهومها»[3] .

---

(١) مجلة الحرس الوطني العدد (٨٦). السنة (١٠) ربيع الآخر ١٤١٠هـ، نوفمبر ١٩٨٩م. (ص: ١٠٣).
(٢) مجلة فصول المجلد (٤). العدد (٣) سنة ١٩٨٤، (ص: ١٢).
(٣) المرجع السابق. (ص: ٣٦).

ويمتـد الاختـلاف إلى «فـردوس عبـد الحميد البهنسـاوي» وهي تتحدث عن كلمة «Modern» ومشتقاتها في مقالة لها عن عناصر الحداثة في الرواية المصرية حيث تقول: «تكرّراستخدام أُحد مشتقاتها وهو Moder-nism للدلالـة على حبّ الجديد ونزعة التحديث والنزعة العصرية، ثم استعملت مصطلحاً نقديّاً دالاً على هذا المذهب. . . . أما كلمة Moder-nity فهي تصف الزمن التالي لهذه الحقبة كما تصف حداثة الأدب وكونه عصرياً»(١).

ولو استطردنا في هذه القضية لطال بنا الحديث، لشدة الاختلاف في ترجمة هذين المصطلحين الغربيين. ولكننا نكتفي بأن نشير إلى كتاب «Discovering Modernism, T. S. Eliot And His Context» لمؤلفه «Louis Menand» حيث استخدم كلمة «Modernism» في دراسة نقدية لـ تي. إس. إليوت وللدلالة على ملامح هذا الأدب وخصائصه. بينما استخدم «John F. Rundell» كلمـة «Modernity» في كتـابـه «Origins of Modernity» حيث تحدث عن: «The Origins of Modern Social Theory from Kant to Hegel to Marx» جذور النظرية الاجتماعية الحديثة من «كانت» إلى «هيجل» إلى «ماركس». ومن هنا نرى شدّة الاختلاف في المصطلح واستخدامه، مما ينعكس على الرؤية ذاتها من ناحية، ومما يشير إلى طبيعة الاضطراب والغموض الذي يلفّ الحداثة كلها، كما سنرى.

٢ ـ الاضطراب والتناقض في التعريف:

ولكن هذا التناقض والاضطراب لايقف عند حدود المصطلح بل

---

(١) المرجع السابق. المجلد (٤). العدد (٤). (ص ١٣١).

يتعـداه إلى المفهوم. ولابد أن نقدم هنا نماذج سريعة لهذا الاضطراب والتنـاقض والغمـوض، مما يسهِّل علينا مَهمّة صعبةً هي تقويم نظرية الحداثة، إن كان لها نظرية محدَّدة، حيث لا تنشأ الصعوبة إلا من غموض الحداثة ومصطلحاتها ومذاهبها.

يقول: «جون إف رندل» في كتابه المذكور سابقاً: «إن طريقتنا في البحث تفرض أن «Modernity» «العصرية أو الحداثة» ليست مجرد وجود تاريخي أو جغرافي أو شيء يوفّر الستارة الخلفية في المسرح لتاريخ الأفكار. ولكنهـا تأسيس للعلاقات الاجتماعية من خلال رأيين أو معنيين: فمن ناحية هي تشير إلى المؤسسات والنماذج التي أقامها رجالها الاجتماعيون، ومن ناحية أخـرى هي تمثـل سلسلة مترابـطة توضّـح كيف بُنَيتْ هذه المؤسسات والنماذج. وبتعبير آخر فإن المفهوم الأول مرتبط بصورة ثابتة مع المفهوم الثاني، المفهوم الذي يمثل الحالات المختلفة للإنسان والأمثال والنـماذج. وهـذه الأمثـال والنماذج تخاطب الطبيعة البشرية أو النشاط الاجتـماعي، وتتـطور من خلال الإصـلاحـات المميّزة لحركـة التنـوير الفلسفية[1] على أساس العقلانية والحرِّية. وهذه تفترض أن الكائنات البشرية تتصرّف بحرّية وبعقلانية في جميع الميادين التي تؤلف أرضية الحياة العصرية. وهذه هي الجدلية المزدوجة «للحداثة أو العصرية Modernity»، حيث تصبـح نظريتهـا وأشكـالهـا تتبع البناء الذاتيّ لها، وتتبع كذلك النشاط التاريخيَّ للطبقات والجماعات والمؤسسات ويمكن أن تُفْهَم كذلك على أنها عمليَّة فرز وتجميع في الحياة الاجتماعية والثقافية، تدفع سلسلة

---

(١) «عصر التنوير Enlight ment» وفلسفته امتد خلال القرن الثامن عشر وانتهى بانتهائه.

من المنطق المتطوّر والديناميكية في الميادين المختلفة .
«للعصرية أو الحداثة Modernity » يرتبط كذلك بالمشكلة ا
أصل الإنسان، والطريقة التي يفهم بها الإنسان ويُفسّر»(

ويرى المؤلف أن كانت وهيجل وماركس يفهمون « ال
nity » على هذا النحو الذي عرضه. وحتى تتضح الصو
المؤلف، فيمكن أن نستمع لما يرويه عن «كانت»[٢] نفس
هذا التصوّر: «التنوير هو تحرُّر الإنسان من الوصاية القا
إن هذه الوصاية تعني عجز الإنسان عن الاستفادة من قدر
والفهم دون توجيه من غيره». ويوضح كانت رأيه أكثر بقو
لم ترشده الغريزة ولم تُغذّه وتُثقّفه المعلومات الجاهزة». وإذ
يوفّر كل شيء من مصادره الذاتية. عليه أن يؤمن
ودفاعه . . . . وكذلك كلّ ما يلهو به وما يجعل الحياة ممتع
يؤمن البصيرةَ والذكاء، وأخيراً طيبة القلب. كلّ هذا يجب أ
وصناعته»[٣]

ويمضي المؤلف «رندل» يعرض جذور الحداثة أو العص
دراسة آراء الفلاسفة الثلاثة كانت وهيجل وماركس، ومن
علم المجتمع والطبقات ونشاطها والانتاج، وجدلية علم الإ
وغير ذلك من الموضوعات الفكرية والفلسفية. ولا حاج
نصوصاً أكثر من هذا الكتاب حتى لايذهب بنا الاستطراد

---

(١) الكتاب المذكور لـ جون إف رندل. (ص: ١، ٢).

(٢) إما نويل كانت «Immanuel Kant» فيلسوف ألماني (١٧٢٤م - ١٨٠٤م) من مدرسة عصر

(٣) كتاب «Origins of Modernity» . (ص: ١٥، ١٦).

من وقفة هنا مع النصوص السابق عرضها من كلمات المؤلف وكلمات «كانت»، لنرى أن هذا التصور الذي تعرضه فلسفة التنوير يختلف كلية عن التصوّر الإيماني والتوحيد للإنسان وللعقل وللحرية. إنه يختلف كلية عن الوحي المتنزّل من عند الله، الوحي الذي يحمل الحقَّ المطلق، لتبلغه النبوة للناس كافّة. وما يورده كانت من كلمة «تحرر الإنسان من الوصاية القائمة بداخله»، تكاد تشعر بهول الصراع الداخليّ في نفسه وفي نفس غيره، حين اضطربت فطرته التي فُطِر عليها، وتنافرت قُواها التي أودعها الله فيها على توازن وحكمة، فغلب الهوى وأخذ يتفلّت من طمأنينة الإيمان وتوازن التوحيد. إنه يعبّر عن شهوة الانفلات من الطبيعة والفطرة المتوازنة، ليغيب في تيه الغرور وظلمة الكبر، فيحسب أنه هو القادر بنفسه على أن يؤمن مأواه وغذاءه، وحتى بصيرته وذكاءه، وحتى طيبة قلبه. ولقد مضى هؤلاء الفلاسفة وهم عاجزون عن أن يُؤمِّنوا لأنفسهم سلامة البصيرة ليَرَوا الحقَّ في الإيمان والتوحيد، وهم عاجزون عن أن يؤمِّنوا طيبة القلب. كيف يستطيعون ذلك وهم في الإلحاد والشرك: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. (البقرة: ٧).

ويؤكد «كانت» هذه العزلة المظلمة التي اختارها لتكون جذور الحداثة ومنبتها وهو يقول: «إن الإنسان يستمد مبادئه من إرادته الذاتيّة وليس من أي مصدر آخر». [1] أيُّ كبر أسوأ من هذا؟!

إذا كانت هذه هي جذور الحداثة عند «كانت» كما عرضها «رندل»

(١) المرجع السابق: (ص: ١٧).

في ميادين الفكر والفلسفة والاجتماع، فإن هذه الجذور لا تختلف كثيراً عند هيجل أو ماركس. فهيجل اعتبر العقل المطلق هو الله[1]، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، وأما ماركس فأنكر وجود الله من خلال الماركسية العلمية أو المادية الجدلية والمادية التاريخية.

أمـا في ميدان الأدب فإن «لويس ميناند Louis Menand» في كتابه الذي ذكرناه قبل قليل «اكتشاف الحداثة Discovering Modernism» يحاول أن يعـطي للحداثة معنى جديداً وقيماً جديدة. إنه يقول: «يمكن أن نفهم الحداثة من بعض الوجوه بأنها محاولة استخدام المصطلحات التي تُعرِّف الأدب وتختصُّ به، لنعمِّمها على الأساليب المتغيّرة المتحوّلة التي تُستخدم في وزن القيم الاجتماعية وفي تحديد قيمة الأعمال المختلفة، دون أن نفقد بهذا العمل ما تمتَّع به الأدب كساحة تقليدية للنشاط»[2]

لقـد احتـاط «ميناند» حين قال: «من بعض الوجوه». ذلك لأن وجهة نظره لاتصح من وجوه أخرى، وهو يحاول أن يربط الأدب بسائر أنشطة الإنسان من خلال استخدام «التعبيرات الأدبية أو المعجم الأدبي Vocabulary». أما أن لا نفقد ما تمتع به الأدب في ميدانه التقليدي، فقد حالت دون ذلك الحركات الحداثيَّة كلها من خلال ثورتها على القديم كله والتراث كله، كما سنعرض بعد قليل.

ويقول «ميناند» كذلك: «لقد اعتاد بعض الناس أن يتناول الحداثة

---

(١) كتاب رندل السابق. وكتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي. ط (٩) (ص: ٢٥٩).

(٢) كتاب Discovering Modernism . (ص: ٨).

على أساس أنها نظرية شكلانية «Formalist» يمكن تفسير ملامحها الرئيسية على أنها ردود فعل للحياة العصرية أكثر مما هي انعكاس لها»[١]

ومع أن ميناند لا يوافق كثيراً على هذا الرأي، إلا أن الحركة الشكلانية حركة حقيقية تمثل إحدى حركات الحداثة، وأما أنَّها ردود فعل، فقد كانت كل حركة من حركات الحداثة التي سنذكرها بعد قليل تمثل حقيقةً ردَّ فعل للحركة السابقة، دون أن يعني ردُّ الفعل أن الماضي لا يَتْرُك أثراً في الحاضر، ولا يكون سبباً للكثير من مظاهره. فالأجيال والعصور متواصلة على سنن ربّانية لايمكن عزل بعضها عن بعض، ولكن ردود الفعل كذلك هي أحد مظاهر هذه السنن.

وحين حاول «ميناند» أن يكوِّن رأياً عن الحداثة، لم ينصف في دراسته حين حصرها أو جعل محورها «إليوت»، معطّلاً بذلك حجماً كبيراً من إنتاج الحداثة قبل إليوت وبعده. وردود الفعل التي يحاول ميناند إنكارها لاتظهر من خلال دراسة فرد واحد وفترة محدودة.

ويشير «ميناند» إلى ماشاع من سُخْريات لاذعة حول الحداثة، فيقول: «من خلال انتشار الأفكار الجديدة والمبادىء المتلاحقة مع الفترة الأولى للحداثة كانت تظهر بعض السخريات اللاذعة عن الحداثة وثقافتها، كأن يقال إن الحداثيَّ يخترع لنفسه تقاليد خاصة

(١) المرجع السابق. (ص: ٨).

تبعـده عن مجتمعه وتقاليده التي كانت بدورها قد اخترُعِتْ لنفس السبب قبل عشر أو عشرين من السنين»[١].

وحتى نستكمـل الصـورة عن اضـطراب معنى الحداثة وتناقضها وغمـوضهـا نرى أن نورد بعض التعريفات الأُخرى لعدد من الكتاب والمفكّرين والحداثيين. يقول «هربرت ريد» في كتابه «الفنّ الآن»: «إننا نلمس الآن ابتعاداً عن كل أنواع التراث. ولايمكن أن ندعو هذا الاتجاه بالتطور المنطقي لفنّ الرسم في أوروبا، لأنه ليس هناك مايوازيه تاريخياً. لقد وجدنا أنفسنا فجأة نكفر بجهود خمسة قرون من الإبداع الفنّي»[٢].

ويقول «فلوبير»: «كل ما أُريد أن أفعله هو أن أُنتج كتاباً جميلاً حولَ لاشيء، وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية»[٣].

نلاحظ هنا مدى التعارض بين هذا التصور للفنّ أو الأدب وبين التصـور الـذي عرضناه «لميناند» قبل قليل. فهنا تأكيد للانفصال عن المـاضي وعن الـتراث. ولكن «جوس أُورتيكا كاسيت» يكشف لنا عن الصورة المظلمة لهذا الانفصال ولتلك الحرب. فيقول في كتابه «النزعة اللاإنسانية في الفنّ»: «إن الحداثة هدمٌ تقدُّمي لكل القيم الإنسانية التي

( ) المرجع السابق. (ص: ١٣٢).
(٢) كتاب الحداثة لمالكولم برادبري وجيمس ماكفلرن. (ص: ٢٠).
(٣) المرجع السابق. (ص: ٢٥).

كانت سائدة في الأدب الرومانسي والطبيعي. وإنها لاتعيد صياغة الشكل فقط بل تأخذ الفنّ إلى ظلمات الفوضى واليأس».[1] كلمات لاتحتاج إلى أي تعليق.

ويُعـرِّف رولان بارت (١٩١٥م - ١٩٨١م) الحداثة «بأنها انفجار معرفيّ لم يتوصّل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه».

وقـائـل يقول عن الحداثة إنها فنُ التحديث. وآخر يقول إنها فن الابتعـاد الصـارم عن المجتمع. وآخر يقول «إنها فنّ اللافن، كما يقول التعبيريون، الفن الذي يحطم الأُطر التقليدية، ويتبنى رغبات الإنسان الفوضوية التي لا يَحدُّها حدّ»[2].

ذكـرنـا من قبـل عن أفكـار «كـانت» بأنها تمثـل انفلات الأهواء والشهـوات فجـاء هنـا التعريـف للتعبيرين يؤكد هذه الصورة. ويزداد التأكيد بقولهم: «الفوضوية التي لايحدُّها حدّ». لتذكرنا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. (الفرقان: ٤٣)

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ٢٣).

(١) المرجع السابق: (ص: ٢٦) ومحاضرة الدكتور محمد مصطفى هدارة في مؤسسة الملك فيصل الخيرية «الحداثة والتراث».

(٢) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيمانيّ» للمؤلف.

«وكوتغريد بن» يُسمّي الحداثةَ «تكافؤ الضّدّين. فهي تحمل مساراً مزدوجاً لأنواع كثيرة من التناقض». ويقول آخر «بأنها شغفٌ بالمجهولِ يؤدي إلى تحطيم الواقع».

صور متتالية تؤكد معنى الغموض والتناقض والتضارب. ومهما حاولنا أن نخفف نحن من أثر هذا التصور، كما حاول «لويس ميناند»، فإن رجال الحداثة يصِرُّون على تعميق هذا التصوّر والمعنى، الغموض والتناقض والاضطراب.

يقول محمد برادة: «ليست «الحداثة Modernity» مفهوماً سوسيولوجيا أو سياسياً أو تاريخياً بحصر المعنى، وإنما هي صيغة مميزة للحضارة....». ويقول: «فالعصرية Modernism هي الوعي الذي تكونه عن نفسها العصور والأجيال والحقب....»[1] تضارب واضح في المصطلح بينه وبين غيره، وغموض في التعريف من خلال طنين للألفاظ توحي للسامع بأن وراءَها شيئاً وما وراءَها شيء.

أما خالدة سعيد فتقول: «.... غير أن الحداثة أكثر من التجديد....، ولا يكون الجديد حديثاً إلا إذا طرح القضايا الأساسية للحداثة وتمحور حول المفصل الصراعي لها.» وتقول: «ترتبط الحداثة بصورة عامة بالانزياح المتسارع في المعارف وأنماط العلاقات والانتاج على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات، أي المعارف القديمة

(١) مجلة الفصول. المجلد (٤) العدد (٣) سنة ١٩٨٤، (ص: ١٢).

التي تحوَّلت بفعل ثباتها إلى معتقدات»[1]. ثمَّ تعيد، وهي تتحدَّث عن جبران، ماسبق أن قاله «كانت» مما عرضناه في الصفحات السابقة. إنها تقول عن جبران مشيدة به: «. . . . يجعل الإنسان مصدراً للمعايير بدلاً من أن يكون خاضعاً لمعايير من الخارج . . . . . ». وتقول: «كان يستعيد للإنسان صلاحية وضع المعايير وكسر الشرائع وكشف الحقائق»[2].

جرأة من خالدة سعيد أن تعلن رأيها بهذا الوضوح والحسم، لتعلن هي الصراع مع المعتقدات والمعارف القديمة، ولتعلن هي نفسها صلاحية وضع المعايير وكسر الشرائع. وخالدة سعيد هي زوجة «أدونيس».

الأدب قوة ضاربة حقيقية. يمكن أن تحوَّل إلى قوة ناريّة تهاجم كل قديم. ونهج بعض الحداثيين هذا النهج لينطلقوا من الأدب، ثمّ يهاجموا كل ما كان يُعْتَبَرُ تقليديا، يهاجمون المعتقدات والمؤسسات ويهاجمون اللغة والدين، ليهدموه، منطلقين من كوابيس المخدرات والجنس في الشعر والرواية والسلوك الواقعي، ثمَّ ينطلق أدب «اللامعقول»، و«اللاتخطيط»، و«اللارواية»، و«اللاشعر»، و«اللافن»، لينقل الإنسان إلى عالم مجهول، مظلم، إلى عالم الشر. ألم ينطلق «بودلير» من أحضان «سارة» الزنجية ومن مرتع المخدرات والخمور لينفث شعره الشيطاني في ديوانه أزهار الشر؟! ألم يكن هو وجماعته في أول ظهورهم يُسمّون «بالمنحطين»؟! ذلك لشدة انحطاط الفكر والصورة والسلوك كما ظهرت

(١) المرجع السابق (ص: ٢٥).
(٢) المرجع السابق. (ص: ٢٦)

يومها في فرنسا.

أما كمال أبو ديب فينقلنا إلى عالم الغموض والحيرة والشك من خلال تعريفه للحداثة. فاسمعه يقول: «الحداثة إذن هي وعي الزمن بوصفه حركة تغيير. . . . . . ! والحداثة اختراق لهذا السلام مع النفس ومع العالم، وطرح للأسئلة القلقة التي لا تطمح إلى الحصول على إجابات نهائية، بقدر ما يفتنها قلق التساؤل وحمىّ البحث. الحداثة جرثومة الاكتناه الدائب القلق المتوترّ. إنها حُمّى الانفتاح!»[1].

لا ننكر براعة اختيار الألفاظ واحتمال تأثيرها الغامض في بعض النفوس. ولكنها تعبيرات عائمة لا تجد معها غناءً أبداً إلا الطنين! وهي تعبيرات تكشف عن نفسيَّة قائلها وعن فكره: فتنة، قلق، حُمّى، تَوَتُّر. . . الخ، ثمّ جرثومة. ولعل أدق كلمتين قالهما هنا كمال أبو ديب عن الحداثة هما: «يفتنها» «جرثومة». نعم إنها فتنة للنفوس التي أظلمت بالشرك، وإنها جرثومة حقّاً، وحُمّى مَرَضيَّة حقاً. اعتراف من كمال أبو ديب حتى نقطع به المراء والجدل.

من هذا العرض السريع الذي أوضحنا فيه اضطراب المصطلح وتناقضه، «العصرية والمعاصرة والحداثة Modernity, Modernism» والاختلاف حول الترجمة والاستخدام، وكذلك الاضطراب والتناقض والغموض في مفهوم الحداثة وتعريفها بين عدد واسع من أدبائها ومفكريها، من هذا العرض السريع ندرك صعوبة تقويم الحداثة، عندما نغوص في وسط هذا الركام من الاضطراب والتناقض والغموض.

(١) المرجع السابق (ص: ٣٥).

ويقول «كمال أبو ديب» أيضاً: «الحداثة انقطاع معرفيّ ذلك أن مصادرها المعرفية لاتكمن في المصادر المعرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة، أو في اللغة المؤسساتية، والفكر الديني، وكون الله مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي. الحداثة انقطاع، لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفنّي، وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية - إذا كان ثمة معرفة يقينية، وكون الفن خلقاً لواقع جديد..»[1]. هذا كلام كمال أبو ديب المنشور في مجلة الفصول وليس استنتاجاً من أحد.

وعلى خطورة هذا الكلام وشدة ضلاله وبعده عن الحق، فإننا نسرع هنا لننقضه بردِّه إلى منهاج الله الذي هو ميزاننا الذي نزن به الفكر والناس. فإذا كانت الحداثة انقطاعاً معرفياً، ففي الإسلام اتصال معرفيّ، اتصال الأزمان والأجيال، واتصال الشعوب، واتصال الأرحام، واتصال أمة الإسلام أمةً واحدة مدى الدهر.

ومصادر المعرفة في نظر الإسلام تبتدىء حين علَّم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، وحين أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ﴿**ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾[2] ثم تمتدُّ المعرفة في حياة الإنسان بالوحي المتنزِّل على الأنبياء والمرسلين الذين خُتموا بمحمد ﷺ، فأنزل الله عليه القرآن

(١) المرجع السابق. (ص: ٣٧).
(٢) الأعراف: ١٧٢

مهيمناً على ما قبله من الكتب المنزلة. وهذا العلم الحق ظلّ يرعى - الإنسان المؤمن وهو يضرب في الآفاق في الحياة الدنيا، يتدبّر آيات وسننه علماً نامياً وجهداً متطوراً، في آفاق الكون وفي نفسه، وفي الإنسان والمجتمعات، ومسيرة البشرية خلال أزمان غابرة طويلة بعيد قلب التاريخ، وحاضر تموج فيه الآيات البيّنات، ومستقبل يسعى جهاداً في سبيل الله. فالله سبحانه وتعالى لا يليق بجلاله أن نقول مركز الوجود أو ليس مركز الوجود، إنه سبحانه وتعالى ﴿**هو الأول والآ والظاهر والباطن**﴾، ﴿**وهو الخلّاق العليم**﴾، خلق كل شيء، ﴿ **على كل شيء قدير**﴾، له الأسماء الحسنى كلها، ﴿**وله الحمد في الأ والآخرة**﴾، ﴿**وهو العليّ العظيم**﴾.

ألفاظ طنانة يسوقها كمال أبو ديب، لايعرف هو معناها، ولا تحمل أيَّ معنى محدَّد: اللغة البكر! الإنسان مركز الوجود، الشعب ه النشاط الفنيِّ، وغير ذلك. ماذا تعني هذه الكلمات؟! لقد نسي كمال ديب عهده مع الله، عهده الذي أشهده الله عليه: ﴿**ألست بربكم ة بلى شهدنا...**﴾. لقد نسي عهده وشهادته وأصبح من الغافلين سماهم الله: ﴿**.... أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن غافلين....**﴾ والفكر العلماني! ماهو؟ إلا أن يكون فكر الض والظلمات، فكر الحُمّى والقلق والتوتر، إلا أن يكون جرثومة تف بالبشرية حين تضلّ عن الحق!.

وصالح جواد الطعمة في مقالته «الشاعر العربي المعاصر ومفه النظري للحداثة»، يتحدث عن مفهوم الحداثة أولًا، ثم يُع

خصائصها بالنقاط التالية: الرؤية، أي النظرة للعالم والحياة، والتأكيد على الذات حيث تُجَسِّدُ الحداثة الداخل، والزمن الأفقي اللامعاد، أو الأفقي والعمودي، على وجهتي نظر واحدة «لكالنسكو» والأخرى لجبرا، والغموض. ويقول: «إن الحداثة الغربيّة، في جوهرها، تعكس معارضة جدلية، ثلاثيّة الأبعاد: معارضة للتراث، ومعارضة للثقافة البرجوازية بمبادئها العقلانيّة والنفعيّة، وتصورها لفكرة التقدم، ومعارضة لذاتها كتقليد أو شكل من أشكال السلطة أو الهيمنة، أي أنها لا تمثل انفصالاً عن الماضي ورفضاً لمقاييسه الثابتة أو ثورة على القيم البرجوازية السائدة فحسب، بل ثورة دائمة أبدية في تطلعها المستمرِّ إلى قيم جديدة، وأشكال أو أساليب تعبيرية جديدة ومعضلتها تتجسّد، كما يقول «هاو» في أن عليها أن تكافح دائماً دون أن تنتصر، إذ أن انتصارها معناه أن تفقد سمة الحداثة. . . .»(١).

إذن هناك خصائص مجمع عليها في الحداثة: معارضة التراث، الغمُوض، ثمَّ الثورة الدائمة التي لا تريد أن تنتصر، إذن لا تريد أن تحقِّق شيئاً في حياة الإنسان أكثر من الاضطراب والقلق والحميّ! إنها فتنة بكل معاني كلمة فتنة وبكل شرورها وفسادها، حين تفلّتتْ من كل الضوابط والقواعد. وأهم الخصَائص الثابتة التي تبرز معنا خلال هذه الدراسة هي محاربة الدين والإيمان عامة.

وعند متابعة هذا الزّخم من تعريف الحداثة، ونحن لم نعرض هنا إلا جزءاً بسيطاً فقط، نشعر بالمدى الواسع من الحرّية المتفلّتة في الفكر وفي التعبير.

---

(١) مجلة الفصول المجلد الرابع ـ العدد الرابع (١٩٨٤م). (ص: ١٤).

وتـورد «هـدى وصفي» في كلمتهـا: «حـداثة الميلودراما» في مجلة الفصول تعريفاً أوردته الموسوعة العالمية الفرنسية تحت عنوان «الحداثة في العالم الثالث»، فتقول: «إن الحداثة جدلية انفصال تتراجع أمام دينامية دمج» وفي مكان آخر منها نقرأ: «إن الحداثة إجراء إيدلوجي موسع»، أو أنها ـ أي الحداثة ـ «متناقضة وليست جدلية. . . .».

حَيْرةٌ في التعريف، والفهم، وضباب كثيف يحجب الرؤية ويمدُّ الظلام.

هذا الاختـلاف الـواسـع في تعريف الحداثة عند رجالها في العالم الغـربي وفي عالمنا العربي يوضح لنا طرفاً من خصائص الحداثة لتكون أسـاسـاً يسـاعـد في تقـويمها. ويمكن أن نوجز أهمَّ الخصائص التي تكشفت لنا بالعرض السابق بما يلي:

١ ـ الاضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته وفي تعريف الحداثة ذاتها.

٢ ـ الغمـوض في الألفاظ والمعاني، واستخدام الألفاظ الطنّانة التي لا تحمل معها شيئاً حين نتدبَّرها، والضبابيّة، والحَيْرة والقلق والحُمّى.

٣ ـ الانقطاع عن الماضي والتراث ومحاربته.

٤ ـ محاربة التصوّر الإيماني وقواعد التوحيد.

٥ ـ صراع مع المعتقدات القديمة كلها والمعارف كلها.

٦ ـ كسر الشرائع.

هذه الخصائص ليست اتهاماً نفتريه على الحداثة، ولكنها نصوص ثابتة تبّناها رجال الحداثة كما رأينا، وكما سنرى في الفصول المقبلة.

الباب الثاني

النمو والتطور بين نهجين

الفصـل الأول

نهجـان للنمـو والتطـور والتغييـر

لقـد عرضنـا في الفصـول السـابقـة: أُسس التقـويم ونهجـه، والاضطراب والتناقض في المصطلح وفي ترجمته، والاضطراب والتناقض في التعريف كذلك. ومن خلال هذه العرض الموجز تبينّ لنا الاضطراب والتناقض بصورة جلية في طبيعة هذه الحركة الفكرية والأدبية. وتبين لنا كذلك بعضٌ من خصائصها التي تبتعد عن الدين، عن الإيمان، عن التوحيد وقواعده.

لقد كان ما عرضناه جزءاً من التقويم الذي ننشده. ولقد رددنا ما عرضنـاه إلى التصـوّر الإيماني، إلى قواعد الإسلام كلما شعرنا بضرورة ذلك. فبعض ما عرضناه كان لا يحتاج إلى تعليق أو شرح موسّع، لوضوح تعارضه مع بداهة الفطرة السوية وسلامة الإيمان. ولكننا وجدنا في الوقت نفسه أننا أمام اضطراب وتناقض وغموض، وأمام ألفاظ عائمة ضبابيّة، تزيد هذه كلهامن صعوبة «التقويم».

وإذا كان ماعرضناه يمثل جزءا من تقويم مايمكن أن نسميه «نظرية الحداثة»، فإننا يجب أن نضع الآن أسلوباً يُسهّل علينا الخروج من هذا الضبـاب الكثيف، ويقـرِّبنـا من العـدالة والأمانة في الرؤية والتحليل والتقويم، ويسَهّل علينا ردَّ الأُمور إلى منهاج الله، إلى منهج الإيمان والتوحيد.

من أَجل ذلك، لابُدَّ أَن نقرِّر الحقيقة الأُولى وهي أَن البحث عن الجديد طبيعة في الإنسان، وجزءٌ من فطرته، وظاهرة متميّزة في تاريخه. فلولا هذه الرغبة الملحّة فيه للنموّ والتطوّر، وللبحث عن الجديد والحديث، لما استطاع الإنسان أَن ينتقل من عصره الحجريّ إلى واقعنا اليوم، ومن سكن الكهوف إلى الخيام إلى العمائر والقصور، ومن ركوب الدوابِّ إلى ركوب السيارات والطائرات والصواريخ، ولما تقدَّم الطب والهندسة وغيرهما من العلوم، ولما تقدَّمت الصناعات. وفي كل عصر من عصور الإنسان كان هنالك تطوُّر ونموٌّ، وبحث عن الجديد لم ينقطع أَبداً. إنها سنة الله في هذه الحياة الدنيا، سنة ماضية، وستبقى ماضية على قدر من الله العزيز الحكيم.

فلا يُعْقَل إذن أَن يكون اعتراضٌ على هذا المبدأ وعلى هذا السعي إلى الجديد والحديث، وهما سنَّة من سنن الله. ولكن الأَصل في هذا التغيير والنمو والتطور هو أَن يكون عملاً صالحاً، يحمل الخير للإنسان في حياته الدنيا، ويحمل الصلاح والسعادة له فيها، ويحمل النجاة والفوز في الدّار الآخرة.

ومضت حياة الإنسان على الأَرض فترة من الزمن كان الناس فيها أُمةً واحدةً على دين الإسلام. وكان النمو والتطور ينطلق من واقع الإنسان وفطرته ودينه. ثم افترق الناس، وكفرت طائفة منهم، فبعث الله النبيين مبشِّرين ومنذرين، كما تبيّن لنا الآية الكريمة التالية في سورة البقرة:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾.

(البقرة: ٢١٣).

نعم! «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه. . .»، ومضى نهج الإيمان خطّاً ممتداً في حياة الإنسان، يدفع إلى الجديد الطاهر، «والحديث» النافع، والنموّ والتطوّر. وكان نوح عليه السلام أوّل الرُّسل إلى أهل الأرض، كما جاء في حديث الرسول ﷺ الذي رواه البخاريّ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، والذي جاء فيه:

«. . . . اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أوّل الرسل إلى أهل الأرض. . .». (رواه البخاري)[1].

ومنذ تلك اللحظة في تاريخ الإنسان أصبح هنالك نهجان! وظلّ نهج الإيمان ممتدّاً في الحياة لا يغيب عنها أبداً، تحمله الفئة الظاهرة التي حدّثنا عنها رسول الله ﷺ، وهي تتعرّض للفتنة بعد الفتنة، تُبْتَلَى وتظل صادقة على أمر الله، لا تساوم على حق ولا تتنازل عنه، ولا تضعف أمام فتنة ولا يخدعها زخرف، في أيّ ميدان من ميادين الحياة.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». (رواه مسلم)[2]

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يبرح

(١) صحيح البخاري. كتاب (٦٠). باب (٣).

(٢) صحيح مسلم. كتاب (٣٣). باب (٥٣) حديث (١٩٢٠/ ١٧٠).

هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة».
(رواه مسلم)[1]

ويأتي هذا الحديث الشريف في تسع روايات صحيحة، تضع كلها خصائص هذه الفئة الظاهرة في حياة البشرية وتجمعها، لتظل هذه الخصائص تدفع الطائفة الظاهرة على النهج الإيماني، ولتظل تدفع الجهد الإنساني إلى كل خير وصلاح، على أكرم سبيل ونهج، لا على اضطراب، وعلى أهداف محددة لا في تيه مظلم، ومن خلال وسائل طاهرة لا تحمل الإجرام والفساد في الأرض.

وهي طائفة ظاهرة ماضيةٌ في الأرض، ماضية في الزمن، لا تستطيع قوة مادية في الأرض إزالتَها. إنّها قدر الله الغالب، ومشيئته الماضية، وحكمته العادلة. واستمع إلى كتاب الله يحدثنا عن مضي هذه الطائفة في الأرض والزمن:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾. (هود: ١١٦)

إذن هنالك نهجان متمايزان: فهذا هو نهج الإيمان الممتدّ في الأرض والزمن (.... **أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض...**)، وذاك هو نهج الظالمين المجرمين الذين اتّبعوا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين!

نهجان متمايزان في تاريخ البشرية: نهج ممتد مستقيم لا يلتوي ولا

(١) المرجع السابق والكتاب والباب. حديث: (١٩٢٢/١٧٠)

يتناقض ولا يضطرب، يبحث عن الجديد، ويدفع إلى النمو والتطور على فطرة سليمة. فهذا هو نهج الإيمان. ونهج متناقض مضطرب، منقطع على فطرة قلقة منحرفة.

ونهج الإيمان نهج مستقيم! أما النهج الآخر فهو متعدِّد السبل، متشعب المسالك، كلُّ سبيل أو مسلك يدعو إلى ضلالة. وآية في كتاب الله وحديث لرسول الله ﷺ يوضحان الصورة ويقارنان بين النهجين. أما **الآية فهي:** ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾. **(الأنعام: ١٥٣)**

وأما الحديث فهو:

عن عبد الله بن مسعود قال: «خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً ثمّ قال: هذا سبيل الله. ثمّ خطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله ثمّ قال: هذه سبل متفرِّقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثمّ قرأ الآية: «وأن هذا صراطي مستقيماً. . . .». (رواه أحمد وغيره)[1]

صدق الله ورسوله! لقد رأينا التناقض في مصطلح الحداثة وفي ترجمته، ورأينا ذلك في التعريف، فرأينا سبلاً شتى، على رأس كل سبيل شيطان من أمثال أدونيس وكمال أبو ديب وغيرهما. ألم يقولوا هم بأنفسهم: الحداثة قلقٌ، حمّى، توتُّر، جرثومة، اضطراب وتناقض؟ وسنرى تأكيد ذلك في دراستنا الموجزة هذه.

من هذا العرض الموجز نرى بعض ملامح الحداثة في ميزان الإيمان.

(١) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد. ترتيب وتأليف أحمد عبد الرحمن البنا. المجلد (١٨). (ص: ١٤١). وقال المؤلف أخرجه مالك والنسائي وابن جرير وابن مردويه وصححه الحاكم.

ونرى شدة خروج خصائصها عن نهج الإيمان والتوحيد، حتى يكاد يظهر لنا أنه من الصعب أن نعتبر أن للحداثة نظرية ثابتة، أو «نهجاً واضحاً محدداً»، ولكن هناك خصائص متناقضة مضطربة، متغيّرة متبدّلة. وإذا قلنا «نظرية الحداثة»، فإن ذلك من باب التجاوز! وعندما يَخرج الإنسان عن نهج الإيمان، تنفلت رغباتُهُ وشهواته وأهواؤه، لتقود هي النموّ المضطرب والتطور المتناقض.

مضت إذن الرغبة بالتجديد والتغيير، والرغبة بالنموُّ والتطوُّر، الرغبة الراسخة في حياة الإنسان وفي طبيعته، بين هذين النهجين: نهج الإيمان، ونهج الظالمين المجرمين كما سمَّاهم القرآن الكريم.

وتصبح القضية إذن أن لا نرفض النموَّ والتطوُّر والسعيَ إلى الجديد، فذلك أمر في فطرة الإنسان، وهو أمر يدعو إليه الإسلام ويرعاه، ولكن أن نميّز بين اتجاه واتجاه، ومسعى ومسعى. فالسعي وراء الجديد وطرق التغيير في حياة الإنسان لم تأخذ منحى واحداً ولا اتجاهاً واحداً. وإنما ضرب هذا السعي في اتجاهات كثيرة. ولتسهيل الدراسة والتقويم، وخضوعاً للقواعد الأربع التي ذكرناها في أوَّل حديثنا، فإننا نقسم جميع هذه الاتجاهات إلى نهجين متمايزين.

«فالحداثة» لفظة استخدمها أصحابها، ووضعوا لها خصائص من عند أنفسهم، خصائص كانت محدَّدة من الناحية النظريَّة، وكانت محدَّدة في الممارسة والسلوك والمواقف. وأهمُّ هذه الخصَائص التي حددها مفكرو الحداثة في الغرب هو الانفصام عن الماضي، ومحاربة التراث كله، وسينكشف لنا إصرار بعض الحركات الحداثية على هذه القضايا والتقاؤها

عليها، مهما كان بينها من اختلاف، حتى صار هذا المصطلح «الحداثة» بهذه الخصائص، عَلَماً عليهم وحدهم، ودليلاً على منهجهم. ولذلك لا نرى من المنطق أن يستعير أحد هذا المصطلح منهم، كما سبق أن استعرنا الاشتراكية والديمقراطية، وربما نستعير غداً البيروسترويكا ونقول: البيروسترويكا الإسلامية. وكلّما نعق ناعق فزعنا لمصطلحه ومعناه ومبناه، نتسوَّل، وقد أغنانا الله عَنهم جميعاً.

«فالحداثة» إذن سنستخدمها في دراستنا هذه لندلّ على هذا المنحى في السعي للتغيير وطلب الجديد والتطور بهذه الخصائص الرئيسية. وبذلك يقابلها المصطلحان الغربيان «Modernism, Modernity» في آن واحد، دون أن نفرّق بينهما هنا. وقد تكون التفرقة بين المصطلحين الغربيين مفيدة في غير هذه الدراسة. إذن هذا هو «نهج الحداثة» الذي سنتابع دراسته وتقويمه. وهو يشمل جميع الاتجاهات والحركات، وكلَّ مسعى حمل هذه الخَصائص في طلبه للتغيير وسعيه للجديد، في أي ميدان من ميادين الحياة.

إن هذا التصوّر المنحرف للكون والحياة قديم في حياة الإنسان. لم يكن «كانت» ولا «هيجل» ولا «ماركس» أول من وضَعَه. إنه ابتدأ عندما افترق الناس فريقين بعد أن كانوا أمة واحدة، وبعد أن أرسل الله لعباده أول الرسل نوحاً عليه السلام، كما سَبَق أن ذكرنا.

ونجد في تاريخ الإنسان تصوُّراً لهذا الانحراف يعود إلى أيَّام اليونان، حين قال «ديمقريط» و «أبيقور» اليونانيان: «إن هذا العالم لم

يخلقه أحد»[1] وتابع هذا الكفرَ رجالٌ على مدّ التاريخ منهم المادّيون الفرنسيون: «لاميترى» و«غولباخ» و «وديدرو»، والمادي الألماني «لودفيج فيورباخ»، ثم جاء ماركس وإنجلز[2].

لم يكن الانحراف عن الإيمان تُمثّله هذه النظرة المادية فحسب. ولكن النظرة «المثالية» التي ظهرت في تاريخ الإنسان كانت تمثل انحرافاً حقيقياً عن الإيمان والتوحيد أيضاً. والفلسفة المثالية تعتبر أن الفكر أو الروح أسبق في الوجود من المادة. ماهو الفكر؟! ماهي الروح؟! الإجابة على هذه الأسئلة استغرقت تاريخ الفلسفة المثالية. وقد تبنّى هذه النظرة «أفلاطون» اليوناني قديماً، و «بيركلي» الإنجليزي في القرن الثامن عشر، ثمّ جاء «هيجل» الألماني في الربع الأول من القرن التاسع عشر ليخطو بالفلسفة المثالية خطوات واسعة.

وإذا كان «رندل» يعتبر أن جذور «الحداثة أو العصرية Modernity » هي عند «كانت» و «هيجل» و «ماركس»، فقد قدّم لنا بذلك دليلاً على أن «الحداثة» هي نقطة لقاء الفلسفتين المثالية والمادية، ولقاء الرأسماليّة والشيوعية، والديمقراطية والديكتاتورية، كما سيتضح معنا من سياق هذا البحث.

ولكن ماهي فحوى الفلسفة المادية والفلسفة المثالية؟ كلمات تتردَّد كثيراً على مسامع الناس، ولعلّ القارىء الكريم يجد في نفسه الرغبة ليعرف شيئاً عن هذه وتلك. فلا بأس أن نقدّم هنا تصوّراً موجزاً للفلسفة المادية والفلسفة المثالية، دون أن ندخل في تفصيلات تخرجنا عن الموضوع، ولكن نقدّم مانظنّ أنه يساعدنا على حسن متابعة دراستنا

(١) المادية الديالكتيكية ـ جماعة من الاساتذة السوفيت. (ص: ٣)

(٢) المرجع السابق. (ص: ٣).

للحداثة ونشوئها ونموّها.

لقد كانت القضية الأساسية التي تصوغ النظريات الفلسفية هي النظرة إلى هذا العالم. والنظرةُ إلى هذا العالم ومحاولة فهمه من خلال الجهد البشريّ وحده، والتفكيرُ المنطلقُ من تأمل الإنسان المجرّد وظنونه، طرح في تاريخ الفلسفة نظريتين أساسيتين: الفلسفة المادية والفلسفة المثالية. فأما الفلسفة المادية فتعتبرُ كلَّ الظواهر التي نُعَالجها والوجودَ كلَّه وجوداً خارجاً عن وعينا، منفصلاً عنه، كله مادة، لم يخلقه أحد، والطبيعة موجودة أزلياً، ولا وجود لقوى خارقة للطبيعة يُزعَم وجودها خارج العالم.

وتعتبر أن هذا الوجود الماديّ هو الوجود الأسبق والأول، ثمَّ تلا ذلك الوعيُ والعقلُ والفكرة. فالمادة في هذه الفلسفة هي وحدها التي تحدِّد الفكر والوعي. والفكر والوعي والعقل، هذا كله هو ما تسميه الفلسفة «بالروح».

وأما الفلسفة المثالية فترى أن الروح هي الأسبق في الوجود. ويعتبرون أن الروح (الفكر والعقل والوعي) كانت موجودة قبل الطبيعة.

فالخلاف الأساسي بين الفلسفتين إذن هو السؤال: أيُّها أسبق الطبيعة (المادة والوجود)، أم الروح (الوعي والعقل والفكر). ولقد ظهر فلاسفة اعترفوا «بالبدايتين» معاً وباستقلال كل منهما عن الأخرى. ويُسمى هؤلاء الفلاسفة بالثنائيين. فالفلسفة الثنائية تعترف بالمادة والروح كبدايتين مستقلتين، على أساس الفهم السابق للمادة والروح.

والمثاليون قسمان: المثاليون الذاتيون والمثاليون الموضوعيون.

فالفلسفة المثالية الذاتية تعترف بأولوية الوعي الإنساني، وتعتبر الأشياء نتاجاً للإحساسات والأفكار. والفلسفة المثالية الموضوعية تعترف بأولوية الروح والفكرة الموجودين خارج الإنسان ومستقلين عنه. والموضوعيون، إذ يعترفون بوجود قوانين للعالم، يبحثون عن مصدر هذه القوانين في «العقل الشامل»، وفي «الفكرة المطلقة»، و«الإرادة المطلقة».

والمعرفة لدى الفلسفة المادية مصدرها المادة فحسب. فالعالم عندهم موجود وجوداً موضوعياً مستقلاً عن الوعي، والناس جزء من الطبيعة يعكسونها في وعيهم. ومن هنا ينشأ الاعتراف بإمكانية معرفة العالم ونظامه عندهم.

أما الفلسفة المثاليَّة فإن بعض فلاسفتها يعتبرون أن مصدر المعرفة هو «العالم الآخر المثالي». فعلى الإنسان أن يتذكر ما كانت «روحه الخالدة» قد لاحظته في «عالم المثل». ومن هذا التذكر تنشأ المعرفة اليقينية عند «أفلاطون». أما هيجل فقد اعتبر أن المعرفة هي معرفة «الفكرة المطلقة» لذاتها، تلك الفكرة التي تخلق العالم وتتعرَّف على ذاتها في شخص الإنسان. والفلسفة المثالية ترفض أن تعتبر العالم الموضوعيّ مصدر المعرفة.

وإلى جانب هاتين النظرتين إلى المعرفة ظهر فلاسفة يشكُّون في إمكانية معرفة العالم، أو يحاولون البرهان على عدم إمكانية معرفة العالم، ويسمَّون «الريبيُّون».

هذه صورة موجزة سريعة عن الحركة الفلسفية في تاريخ الإنسان. وهذه الأفكار المادية والمثالية والمتشككة قديمة في حياة الإنسان، كما سبقَ

أن ذكرنا، حين قلنا إنها بدأت مع ظهور الانحراف عن الإيمان والتوحيد إلى الكفر بالله والشرك به، ومع إرسال نوح عليه السلام أول رسول للناس على الأرض، بعد أن كانوا أمة واحدة تدين بالإسلام ديناً واحداً، وتعبد الله وحده ربّاً واحداً لاشريك له.

ولسنا هنا في موضع نردُّ فيه على هذه الفلسفات كلها بالتفصيل، ولكن لابد من أن نعرض بعض القضايا الرئيسية لتكون عوناً لنا على التقويم، ولتعين القارىء الكريم على العودة إلى كتاب الله وسنَّة رسوله، حيث يجد الردَّ المفصَّل والإجابة اليقينية القاطعة.

فقول الفلسفة الماديَّة إن الوجود كُلَّه وجود ماديٌّ لم يخلقه أحد هو وهم وظنٌّ، لم يقيموا عليه برهاناً ولم يُقدِّموا حجّة أبداً. وإنما افترضوا ذلك فرضاً ثمّ اعتبروه حقيقة، ثمَّ بنوا فلسفتهم على هذا الظنَّ الباطل الذي لا حجَّة معه. وكذلك الفلسفتان، المادية والمثالية، كلتاهما نتاج الجهد البشريّ وحده. والإنسان جزء من هذا الكون، مخلوق، لايبلغ علمه مهما نما إلا قدراً قليلاً جداً عن هذا الكون الممتّد، الكون الذي يزيد البحث العلميّ فيه اتساع المجهولات فيه وزيادتها لا ضيقها وتقليلها. فلا حقَّ للإنسان أن يطلق من وهمه وعلمه القليل حقائق عامة يفرضها على الكون الذي يجهل الإنسان معظمه.

أما بالنسبة للمادة والروح، فإن المادة بعضها يقع تحت حواسنا وإدراكنا، وأما الروح فلا نعلم عنها شيئاً أبداً. لذلك تاهت الفلسفات كلها في معنى الروح، واعتبرت بعضُها الروحَ هو «الوعي والفكر والعقل»، فرضاً من عند أنفسهم، ووهماً لايقوم عليه دليل.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .
(الإسراء: ٨٥)

وحول الخلاف بين الفلسفتين، أيهما أسبق المادة أم الروح (الوعي والفكر والعقل)، فإننا نقول عن إيمان ويقين بأن الله ربّ السموات والأرض وما بينهما، وربّ العرش العظيم هو الأسبق وهو الأول والآخر:

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . (الحديد: ٢، ٣)

والله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء، يحيي ويميت، وضع لهذا الكون كلّه سنناً ماضية ثابتة. ومن هذه السنن أن يولد الإنسان على النحو الـذي نعلم عنه بعض العلم، ثم يعيش إلى أجل مسمى، ثم يموت لتكون الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء وتمحيص، ولتكون الدار الآخرة بعد البعث والحساب دار جزاء، إما إلى جنّة وإما إلى نار، على حكمة غالبة لله، وعدالة حقّة ماضية، وعلم يحيط بكل شيء، وقدرة قادرة على كل شيء، له الأمر من قبل ومن بعد:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .
(الروم: ٤٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٦٧ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا

قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾. (غافر: ٦٧، ٦٨)

وأما مصدر العلم والمعرفة فما أضاب هؤلاء ولا هؤلاء بتحديدها وحصرها في مادة أو في تصوُّر. ففي نظر الإسلام كان أول المعرفة في حياة الإنسان ما علمه الله لآدم عليه السلام في الجنّة.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: ٣١)

وما نزل آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض إلا وهو يحمل علماً يقينياً، وتجربة حقيقية مع الشيطان، ليعرف كيدَ الشيطان معرفة يقين لا معرفة ظن. وجعل الله في فطرة بني آدم كلهم حقائق الإيمان والتوحيد، لا تغيب عنهم إلا بالمعصية والآثام وبما كسبت أيديهم. ثم كان العلم اليقيني كذلك الوحي الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه الذين خُتموا بمحمد ﷺ، وختمت الرسالات بالقرآن الكريم الذي يحمل العلم الحقَّ الصادق اليقينيّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مهيمناً على الكتب السابقة كلها. بعد ذلك العلم الذي يجمعه الإنسان بالنظر في الكون وبالسعي في آفاقه، يزداد علمه هذا جيلاً بعد جيل، على قدر من الله سبحانه وتعالى، فلا يحيط الإنسان من هذا العلم إلا بما شاء الله، وقد سخَّر الله له مافي السموات وما في الأرض، وأسبغ نعمه عليه:

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾.
(لقمان: ٢٠)

وعلم عن ظاهر الحياة الدنيا وغفلة عن الآخرة:

﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ (الروم: ٦، ٧)

وآيات الله بيّنة في أنفسهم لو يتفكرون:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾. (الروم: ٨)

ولو ساروا في الأرض سيرة المؤمنين المتدبّرين لجمعوا علماً نافعاً:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

(الروم: ٩)

ومن هذا التفكر في أنفسهم، ومن سيرهم في الأرض، ومن تأملهم في السموات والأرض وما بينهما، لا يجمعون من العلم ولا يحيطون إلا بما شاء الله:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾. (البقرة: ٢٥٥)

هذا هو الكـون الممتـدّ: السموات والأرض وما بينهما، العرش، الكـرسي، الإنسـان، المـلائكة، الشياطين والجن، «. . . **ويخلق مالا تعلمون**. . .»، فهؤلاء الفلاسفة المدّعون ماذا يعرفون من هذا الكون كله، ماذا يعرفون وكيف أباحوا لأنفسهم أن يطلقوا من جهلهم أحكاماً مطلقـة لا حجـة لهم معهـا، ولا برهـان لهم عليها؟! قاتلهم الله أنّى يؤفكون. إنه الكبر والجهل والوهم والظن!

وعلم الغيب علم حقٌّ لا مجال للإنسان أن يخترقه. هكذا قضى الله رب السمـوات والأرض رب العـرش العظيم. أنَّى للفلسفة المادية أو الفلسفة المثالية أن تعرف خبر آدم وحوّاء في الجنّة ونزولهما إلى الأرض؟! أنىّ للفلسفـات البشرية كلها أن تعلم ماذا يوجد بعد الموت؟! وكيف تعرف نبأ البعث والحساب والجنّة والنار والملائكة والجن والشياطين، وكل ماخلق الله في السموات والأرض؟! ألا يستحي هؤلاء الفلاسفة من أنفسهم؟!

الفصل الثاني

نهج الإيمان في النموّ والتطوّر والتغيير

لا نهدف هنا إلى أن نفصِّل في خصائص هذا النهج الإيمانيّ المتميِّز في النموِّ والتطوُّر والتغيير. فهذا التفصيل يحتاج إلى بحث مُستقل لا تتسع له هذه العجالة في هذا البحث. وإنما نهدف هنا إلى إبراز أهم هذه الخصائص الإيمانية، لتساعدنا في مَهمَّة هذا البحث، ولتُسَهِّل المقارنة بين فكر وفكر، وليَسْهُل التقويم بعد ذلك.

ولا نتحدث هنا عن التغيير في الكون كله، ولا عن نماذجه وأنواعه في الحياة الدنيا، ولا نهدف إلى عرض جميع القواعد والتفصيلات، بقدر ما نحرص على عرض الأُسس والقواعد الرئيسية.

ونحصر حديثنا هنا كذلك فيما يتعلّق بالجهد البشريّ في الحياة الدنيا، وما يوفّره له الإيمان والتوحيد من خصائص في سبيل النموّ والتطور والتغيير في جهد الإنسان وعمله وسعيه.

ويجب علينا أن نؤكد منذ البداية أننا حين نعرض قواعد وخصائص تبدو للوهلة الأُولى أنها تمسُّ نشاط الفرد وحده، فإننا في الوقت نفسه نؤكد أَن هذه الخصائص نفسها تمس الجماعة والأُمة ونشاطها. إنها تمس نشاط المجتمع المتحرّك العاملِ، المجتمع المؤمن العابد لربِّه وخالقه، المجتمع

المتماسك بأفراده المؤمنين الذين يأمرهم الله أن يكونوا صفّاً كأنهم البنيان المرصوص.

وإذا كانت بعض حركات الحداثة تحاول أن تجد المسوّغ الأوّل لفكرها بادعائها البحث عن الجديد وعن التغيير، فإنها لا تُحدِّد خصائص هذا التغيير ومدى ارتباطه بمحاربة الفساد والفتنة والشرِّ في الأرض. ولكنها تطرح كلمات عائمة ومصطلحات غامضة، كما قال رجال الحركة التعبيرية «أن على الحركة التمسُّك بالغموض فإنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والوضوح والاستقامة». كما سنوضح هذا كله بنصوص رجال الحداثة أنفسهم، في الصفحات المقبلة، لا نفتري عليهم.

وإذا كان هذا هو رأي الحركات الحداثية في أوروبا كالحركة التعبيرية، فإننا نأمل ممن يبحث عن الجديد والنمو والتطور في بلاد المسلمين أن لا ينهج هذا النهج، ونأمل أن نجد منهم من يحرص على دينه ودين أمته ويذود عنه. فليس كل من يرغب في الجديد والنمو والتطور، تحت أي اسم إدعاه كان فاسداً، إلا إذا نصَّ نصّاً صريحاً على المساس بالدين والإيمان والتوحيد.

وهدفنا في هذه الكلمة ألا نطعن أو نجرّح أحداً، بقدر ما نهدف إلى أن نجمع القلوب كلها على كلمة الحق وخير الأمة، وأن نتألفها حتى تخشع القلوب كلها لله، وتصبَّ الجهود كلها لحماية الديار والأمة والدين.

ونحن نعرض هنا نصوصاً تُناقَشُ بعدالة وأمانة، من خلال قواعد مقررة ومنهج محدد، بعيدين عن الإثارة، قريبين إلى الحوار الهادىء

المطمئن، يملأ الحبُّ لله ولرسوله قلوبنا، ليفيض هذا الحبّ خيراً في الحياة الدنيا وأجراً من الله في الآخرة إن شاء الله.

ونحاول الآن أن نعْرض أهم القواعد الأساسية التي يُرسِّخها الإسلام لدفع النمّو والتطور في حياة الإنسان ومسيرة البشرية، وفي توفير التغيير الصالح. ونوجز هذه القواعد الأساسية بمايلي:

١ـ الفطرة الثابتة في الإنسان:

هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها تحمل الطاقات والنوازع في الإنسان، وتحمل الرغبات والشهوات وضوابطها. ولا نستطيع أن نحدِّد جميع ما أودع الله في هذه الفطرة من قوى وكوابح، ولكننا نعرض طرفاً منها مما تعلمناه من كتاب الله وسنة رسوله، ومما نخلص إليه من واقع الإنسان ونشاطه حين نردّه إلى منهاج الله.

فمن هذه القوى التي أودعها الله الإنسان قوة التفكير والتأمل والتدبر. وهذه القدرة ضرورية للنمو والتطور. ولكنها قوة لا تعمل وحدها معزولة عن سائر القوى. إنها تعمل متناسقة مع القوى الأخرى المغروسة في فطرة الإنسان وطبيعته بصورة تخضع للسنن الربّانية التي جعلها الله جزءاً من كيان الإنسان وخلقه. فالعاطفة والشعور طاقة أخرى مغروسة في فطرة الإنسان، توفر له الرغبة والحوافز والإقبال والإدبار وتنطلق من هذه العواطف رغبات وشهوات وميول، تتوازن في حياة الإنسان في حالتها الطبيعية التي يولد عليها الإنسان. وكل رغبة أو شهوة في فطرة

طاقة الإيمان هذه اودعها الله في فطرة الإنسان، لتكون أهم طاقة تعمل في حياته، وأهم طاقة تقرر مصيره. وإذا كان لكل طاقة أو رغبة في الإنسان أوجدها الله لتُحقِّق غاية في حياته وحاجة لمسيرته. فالشهوة الجنسية تحقق للإنسان قدر الله في تكاثره وتناسله، والحبُّ يوفر للإنسان بمشيئة الله بناء الروابط الإيمانية في حياة الإنسان الاجتماعية. وهكذا كلُّ طاقة وقوة ورغبة فإنها وجدت لتحقق غاية وحكمة ربّانيّة. ومن هذه الرغبات والميول في فطرة الإنسان حبُّه النموّ والتطور، ورغبته في التجديد والتغيير، ليحقق صورة من صور العبادة في حياته، وشكلاً من أشكال الطاعة الصادقة لله ربّه وخالقه.

ولكنَّ أهم هذه القوى والطاقات التي غرسها الله في فطرة الإنسان هي الإيمان والتوحيد. الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. الله الذي له الأسماء الحسنى كلها متكاملة متناسقة، إذا غاب عن الإنسان شيء من هذه الأسماء الحسنى ومن صفات الله. اضطرب التصوّر الإيماني واختل اختلالاً قد يؤدي بصاحبه إلى الانحراف أو الشرك أو الكفر، على قدر ما يغيب من هذه الأسماء والصفات. ومن طاقة الإيمان والتوحيد المغروسة في فطرة الإنسان سائر خصائص الإيمان والتوحيد والتصديق بكل ما يتبع ذلك من ملائكة وجنّ وشياطين، ومن بعث وحساب، وجنة ونار في الدار الآخرة بعد الموت، ومن نُبّوة ورسُل، وكتب نزل بها الوحي الأمين، خُتمتْ كُلُّها برسالة محمد ﷺ، نبيّاً ورسولاً خاتماً، وبالقرآن الكريم كتاباً مهيمناً على كل ماسبقه من الكتب.

فطرة الإنسان غاية تؤديها وحكمة ربّانيّة تخضع لها، فإن من معاني هذه الحكمة الربانية ابتلاء الإنسان وتمحيصه من خلال نشاط هذه القوى فيه وحركتها وانطلاقتها إلى غاياتها التي خُلقت لأجلها، أو انحرافها عنها.

وطاقة الإيمان والتوحيد ترعى هذه الطاقات في فطرة الإنسان، وتغذيها وتحفظ بينها التوازن في النشاط والعمل، حتى تظل في اتجاهها إلى غاياتها التي خلقت من أجلها. وباضطراب الإيمان والتوحيد يضطرب التوازن بين هذه القوى، ويضطرب الغذاء، فتنمو شهوة نمواً زائداً وتضمر رغبة أخرى، وتخرج الرغبة أو الشهوة عن نهجها وتنحرف عن غايتها. فإذا اختل الإيمان والتوحيد، ونمت الشهوة الجنسية تبعاً لذلك وانحرفت عن غايتها يقع الزنا بدلاً من الزواج. وإذا اختل التصور الإيمانيّ والتوحيد واختل معه حبُّ الأرض والديار مثلاً، انحرف هذا الحبُّ عن هدفه وغايته، وتحوَّل إلى عصبية جاهلية وفساد في الأرض. ويقال الشيء ذاته عن حب الوالدين حين ينحرف عن صورة العبادة والطاعة لله إلى عصبية عائلية مبتوتة الصلة عن الإيمان والتوحيد. وهكذا تضطرب سائر الرغبات والشهوات والعواطف والقدرات، حين يضطرب الإيمان، وتنحرف عن نهجها وغايتها، وتصبح فساداً في الأرض، وفتنة في حياة الناس، وشرّاً كبيراً. ومن هذه الرغبات الرغبة في النمّو والتطور والتغيير. فعندما يرعاها الإيمان والتوحيد تظل هذه الرغبة تعمل على نهج الإيمان، وتنطلق إلى غايتها الكريمة وأهدافها الصالحة، لتكون خيراً في حياة الإنسان وصلاحاً. أما إذا اضطرب الإيمان والتوحيد، فتختلُّ هذه الرغبة وتنحرف إلى فساد وتدمير، وفتنة وضياع، وظلمة ومتاهة.

فالفطرة التي فطر الله الناس عليها عامل من عوامل النمو والتطور على منهجه الربّاني الطاهر النظيف، يرعاه الإيمان ويدفعه التفكير وتنضم إليه قوة مع قوة.

٢ ـ السنن الربانية الثابتة في الكون والحياة:

جعل الله في هذا الكون سنناً ثابتة. وجعل كذلك سننا ثابتة في حياة الإنسان والبشرية وحركة المجتمعات. وجعل سنناً ثابتة في الرياح والأمطار، وحركة الشمس وغيرها. ففي حياة الإنسان تأتي الآيات الكريمة توضح ذلك:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.
(الفتح: ٢٣)

﴿..... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾. (فاطر: ٤٣)

أما بالنسبة للكون فالآيات ممتدة في كتاب الله تلحُّ على الآيات البيّنات في الكون، الآيات التي تكشف عن ثبات هذه السنن الربّانية، وحكمتها، وتقديرها:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾
(آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

وكذلك: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)

وكذلك:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾. (الفرقان: ١، ٢)

ولولا هذه السنن الثابتة ما استطاع الإنسان أن يخطو خطوة إلى الأمام، ولا أن ينمو أو يتطور. لولا ثبات هذه السنن ماتطورت السيارة ولا الطائرة، ولا قامت الصناعات، ولا نهضت العمائر، وما أمكن الاستفادة من أي مادة في هذه الحياة الدنيا، ولا أمكن غزو الفضاء القريب والتجوّل فيه. كل نشاط الإنسان في حياته الدنيا قائم على ثبات السنن الربانية في الكون والحياة، وعلى مدى فهم الإنسان لهذه السنن.

ليست مهمة الإنسان أن يصارع هذه السنن ويحاربها. مُهمة الإنسان أن يبحث عنها ويدرسها ويتدبَّرها، ثم يخضع لها حتى يستطيع الاستفادة منها. فقد سخّرها الله وحده لمنفعة الإنسان، حين يُحسن الإنسان تعامله مع هذه السنن، وحين يدرك أنها ثابتة ماضية في الكون والحياة، لا تتبّدل. وحين يدرك أنه لم يوجدها الإنسان، وإنّما أوجدها الذي أوجد الإنسان، وخلقها الله الذي لا إله إلا هو، الله الذي خلق الإنسان.

إنَّ معنى خضوع الإنسان لهذه السنن أنها سنن ثابتة لا يستطيع تغييرها، وإنما سخرها الله له، ويسَّر له الاستفادة منها ومن ثباتها.

والإنسان مكلف من ربّه أن يتعامل مع هذه السنن ليبني في الأرض حضارة الإيمان، عبادة لله وطاعة له. فقد استخلفه في الأرض واستعمره فيها، أي طلب منه عمارتها بعبادة الله وطاعته، ليخلف في ذلك جيل بعد جيل:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

(هـود: ٦١)

يريد رجال الحداثة، كما سنذكر بعد قليل، وتريد الفلسفة المادية كذلك، مصارعةَ هذه السنن والسيطرة عليها، أو يريدون إلغاءَها. وسيمر معنا موقف الحداثيّ المستقبلي الشيوعي «مايا كوفسكي»، وكيفَ مَلَّ من حركة الشمس وشروقها وغروبها الدائمين. وجعل من هذا الملل «أدباً» يسمونه «الحركة المستقبلية». وهذا كمال أبو ديب، كما مرّ معنا في تعريف الحداثة، يريد أن يغيّر كل شيء، ويقطع كل صلةٍ مع الماضي، ليبقى التغيّر مستمّراً كل لحظة، حتى لا يبقى شيء ثابتاً. إنه هَوَس وقلق وحُمّى. إنه مرض، إنه جُرثومة كما سماها كمال أبو ديب نفسه. وسنرى موقف بعض حركات الحداثة من هذه السنن، موقف العداء أو الإنكار، أو التجاهل.

هذه السنن الربّانية الثابتة عامل أساسي في النموّ والتطور والتغيير، في النظرة الإيمانية. وبغير النظرة الإيمانية يضطرب التصور لهذه السنن، وتضطرب العلاقة والتعامل والموقف، ويصبح موقفاً ينشر الفساد في الأرض، والفتنة بين الناس.

إن الفطرة السليمة تدفع الإنسان ليتأمل في هذه السنن الربّانيّة في الكون، وتدفع الإنسان كذلك إلى السعي المنهجي الدائب في الحياة الدنيا على إيمان وتوحيد، لينهض كل نموٍّ في الجهد البشري وكلّ تطوّر على أساس ثبات هذه السنن، ومضيها في حياة الإنسان.

فثبات هذه السنن جزء من النهج الإيماني والتَطوُّر الإيماني، **تتلقّاهُ الفطرة** السليمة على يُسْرٍ وإيمان، وعلى وعي كامل لمسئولية الإنسان **في هذه** الحياة الدنيا، وللأمانة التي يحملها، والخلافة التي أُنيطت **به**، والعبادة التي خُلِقَ لها، على ابتلاء وتمحيص. فلن تكون الحياة في **نظر المؤمن** صراعاً مع الكون، ولا صراعاً مع سنن الحياة، ولكنها وعيٌ وتدبّر، وعبادة وسعي، وابتلاء وتمحيص. ليدفع هذا التصوّر سنّة الله في النمو والتطور، على طهارة وبركة.

يمضي الإنسان بهذا التصوّر وهو يدرك معنى عظيماً للحياة، وهو **يعرف** الدرب الذي رسمه الله له، والأهداف الجليّة التي حدّدها **الله له**، فيمضي على بصيرة ونور:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. (يوسف: ١٠٨)

٣ ـ التفكّر والتدبر:

لقد أُلحّت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة على تميّز الإنسان بالتفكُّر والتدبر والتأمل، ورسمت للمؤمن نهجه المتميّز في ذلك كله، كما تميّز المؤمن بالنيّة والسعي.

إن هذا التفكير والتدبُّر مسئولية يحاسب عليها الإنسان، وسِمة يجب أن تبرز في حياة المؤمنين، حتى يدفع التفكير والتدبُّر سعيَ المؤمنين بالنيّة الصادقة والنهج الصادق. فإذا تعطلت قوة التفكير أو اضطربت، انحرف النهج، والسعي، وضلّ الجهد عن أهدافه، وفقد سبباً هامّاً من أسباب النموّ في حياة المؤمنين وجهدهم.

إن ميدان التأمل والتدبّر في حياة المؤمن واسع جدّاً. إنه واسع اتساع ميدان السعي. فكما سخر الله مافي السموات وما في الأرض، وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة، فإنه سبحانه وتعالى جعل السموات والأرض ميدان التأمل والتدّبر:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾
(آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

هذا هو اتساع ميدان التفكير في حياة المؤمنين، لا ينغلقون عن الحياة، ولا ينغلقون عن الكون، ولا يتركون هذه الميادين لغير المؤمنين ليجعل هؤلاء منها قوة لفسادهم وطغيانهم. فإن إثم المؤمنين إن فعلوا ذلك كبير، وعقاب الله شديد. إن الميادين مفتحة لسنة الله للناس كافة:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.
(الإسراء: ٢٠)

وإن هذه الميادين هي ميادين ابتلاء وتمحيص حتى يميز الله الخبيث من الطيّب، وحتى تجلو هذه الميادين تمايز النهجين، وحتى يشق نهج الإيمان بصدقه وقوته.

إن قوة التفكير هذه، وقوة التأمل والتدبر، أساسية في حياة المؤمنين، حين تدفعها النيّة الصادقة الخالصة لله، وحين يرويها الإيمان والتوحيد ويصوغها الإيمان والتوحيد والعلم الصادق بمنهاج الله قرآناً وسنّة، إن قوة التفكير والتأمل والتدبر هذه بهذه الخصائص هي منطلق هائل لنمو الجهد

البشري المؤمن ولتطوره، ولاكتساب كل حديث نافع وجديد طاهر في حياة الإنسان، في الأرض، وفي آفاق الكون.

إن قوة التفكير هذه، وقد جعلها الله نعمة منه على الإنسان، تصبح في حياة المؤمنين مصدر خير وبركة كثيرة. إنها تعمل في حياة المؤمنين بخصائصها الإيمانية المتميّزة: النيَّة التي تدفع وتوجه، الإيمان والعلم الذي يصوغ ويُغذّي ويُنمّي، النهج المستقيم والأهداف الطاهرة الجلية. إنها تعمل وتؤتي ثمارها متناسقة مترابطة مع سائر طاقات المؤمنين، ليتضاعف العطاء. إنه ليس تفكير الناسك المنقطع عن الحياة، إنه تفكير المؤمن المرتبط بالسعي كما سنعرضه، بالجهد والعطاء، بالصبر والمداومة، بالأمل الممتدّ والرجاء الذي لا ينقطع، والبشرى التي تملأ حياة المؤمن في كلّ أحوالها.

إن قوة التفكير في حياة المؤمنين قوة ممتدة مع العصور والأجيال، غنيّة بالتجارب والخبرة والمران، نامية متطورة هي ذاتها بهذا كله، دافعة إلى كل نموّ وتطور. فإن ظهر أنها توقّفت في مرحلة من مراحل التاريخ، فإن الحقيقة ليست توقّف التفكير المؤمن فحسب، ولكنها ضعف الإيمان والتوحيد، وهوان القلوب والعزائم أولاً، وهذا الهوان والضعف أدّى إلى اضطراب التدّبر والتأمل، واضطراب السعي، ومن ثمَّ التخلّف عن ميادين التنافس الحق، أو تركها للمشركين خالية من فرسان الإيمان ومواكب التوحيد، عاجزة عن النموّ والتطور، عاجزة عن البحث عن الجديد النافع الطاهر. وفي هذه الحالة يصبح هؤلاء العاجزون يَتَتَبَّعون سنن غيرهم، ويقلدونهم تقليداً أعمى، وينقضون عرى الإسلام عُرْوَة عُرْوَه:

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ **قال**: «لتتبعُنَّ سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو **دخلوا** **جُحر** ضَبٍّ لتبعتموهم». قلنا: يارسول الله! آليهود والنصارى؟! **قال**: «**فمن**»؟! (رواه الشيخان وأحمد وابن ماجة)(١)

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتُنْقَضَنَّ** عرى الإسلام عروة عروة. فكلما انتقضت عروة تشبّث الناس **بالتي** **تليها**. فأولهنّ نقضاً الحكم وآخرهنّ الصلاة».

(رواه أحمد وابن حبان والحاكم)(٢)

هذا هو حال العاجزين ولو انتسبوا إلى الإسلام. إنه حال من ضعف إيمانهم وهان سعيهم وضبل تفكيرهم، فعجزوا هم أنفسهم عن النموّ والتطور، وعجزوا عن البحث عن الجديد النافع والحديث الطاهر، **فقعدوا** يتتبّعون سنن غيرهم على ذله وعجز وهوان.

أما المؤمنون الأقوياء، الفئة الظاهرة، الماضية مع العصور والأجيال، فإنها تظل تنهج نهج الإيمان على عزّة وظهور لا يضرّها **من** **خالفها**، تدفع النيّةُ الصادقة تفكيرَها، يَرويها الإيمان والتوحيد **والعلم** بمنهاج الله، فيمضي جهدها البَشَريُّ على نموٍّ وتطور، يطرق **آفاق** **الحياة**، على سُننٍ ربانيّة، وقدر غالب وقضاء ماضٍ، وعلى عبادة **خَلَقَ** **الله** الإنسان لها، وأمره بها، وحمّله أمانتها.

أما تفكير المشركين الذين أشركوا بالله أو كفروا به، والذين **فسدت**

---

(١) **البخاري**: كتاب (٦٠) باب (١٤٣). حديث (٣٤٥٦). مسلم: كتاب (٤٧). باب (٢). حديث (٢٦٦٩/٦). أحمد: المسند (٩٤/٣)، الفتح (١٩٧/١) حديث (٢٣ - ٢٦).

(٢) **صحيح** الجامع الصغير وزيادته للألباني. ج (٥) (ص: ١٥) حديث (٤٩٥١). **وقال تخريج الترغيب** (١٩٧/١).

نيّتهم، واضطربت بذلك علاقاتهم بسنن الله، واضطرب فهمهم لها، اعتبر القرآن الكريم هؤلاء لا يفكرون ولا يبصرون ولا يسمعون. إنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. (الأعراف: ١٧٩)

فلا شكَّ بعد ذلك أن يبطل سعي هؤلاء بعد أن فسدت النيّة وفسد النهج والتفكير والسمع والبصر. لاشك أن الله سبحانه وتعالى لن يقبلَ من هؤلاء عملاً ولا سعياً أبداً مهما حمل من زُخرف النمو الكاذب والتطور الخادع:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾. (الفرقان: ٢٣)

٤ ـ السعي المنهجي الدائب للإنسان المؤمن:

السعيُ في الأرض طبيعة في الإنسان وسِمَة من سماته، ومحاولة اكتشاف المجهول في حياته الدنيا رغبة ملحّة فيه. هكذا خلق الله الإنسان وهكذا جعل فطرته وطبيعته.

والناس كلهم يسعون في الحياة استجابة لهذه الطبيعة، وإدراكاً للحاجة لتحصيل الرزق:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾. (الملك: ١٥)

وجعل الله كذلك مافي السموات والأرض مُسخَّراً للإنسان، ليطرق

الإنسـان أبوابه، وليسعى فيها سعياً دائباً ممتدّاً مع العصور والأجيال، وليرى آيات الله من خلال سعيه، إذا سعى وهو مؤمن :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ .
(لقمان : ٢٠)

وتتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لتبيّن لنا هذه الطبيعة العامّة في الإنسان، وهذه الأرض المذلّلة الممهدة لسعيه، وهذا الكون المسخر له.

ولكنَّ هذا السعي يتنوَّع وتتعدَّد مذاهبه في واقع الإنسان، كما نلمس ذلك في تاريخ الإنسان من ناحية، ومن ناحية أخرى كما يقرِّر ذلك القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ . (الليل : ٤)

ومذاهب السَّعي كُلِّها تجتمع في خطين متباينين، ونهجين مختلفين : نهج الإيمان والتقوى، ونهج الكفر والتكذيب :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ . (الليل : ٥ ـ ١٠)

وهكـذا يتمايز نهج الإيمان بالنيّة والإيمان والمنطلق، وبالدرب والأهداف، وبالوسائل والأساليب :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ

﴿فَأُولَـٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰؤُلَاءِ وَهَـٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾. (الإسراء: ١٨ - ٢٠)

إن هذه الآيات جليّة بيّنة لا تكاد تحتاج إلى تعليق إنها تقارن بين النهجين في النيّة (**من كان يريد العاجلة** . . . . ، **ومن أراد الآخرة**)، والدرب (**عجلنا له فيها مانشاء** . . . . ، **وسعى لها سعيها وهو مؤمن**)، والنتيجة (**ثمّ جعلنا له جهنم** . . . . . ، **فأولئك كان سعيهم مشكوراً**).

ويؤكد القرآن الكريم هذا التمايز في سور عدة وآيات بيّنات، نأخذ منها قبسات:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١)

سعيان مختلفان في حياة الإنسان، لا يعقل أن تكون نتيجتهما واحا في الحياة الدنيا ولا في الآخرة. ولاتتمّ هذه المقارنة في موقف أو مرحلة ولكنه تمايز في تاريخ الإنسان.

ومن هذا السعي الدائب المتميّز للإنسان المؤمن، ينطلق عمله، وينمو ويتطوّر على خصائصه الإيمانية. ومع هذا السعي الدائب للأمة المؤمنة ينمو عطاؤها ويتطور على نهجه الإيماني، وهي تسعى في آفاق الكون أمة عابدة لله قانتة له.

فبالإضافة إلى «النيّة» التي يتفرّد بها سعي المؤمن، فإنه يتمايز كذلك بالنهج. فله دربه المتميّز، وله أهدافه المتميزة، وله كذلك أساليبه

ووسائله. هذه كلها تدفع جهد المؤمنين ليظل نامياً متطوراً، وليكون النمو والتطور من خصائص الممارسة الإيمانية، من خصائص السعي المنهجي الدائب للمؤمنين، في مختلف ميادين الحياة. فإذا توّقف النمو وجمد الجهد، فإن هذا يكون دليلاً على وهن في الجهد والعطاء، والإيمان والتصور، وعلى تقصير يحاسب عليه الإنسان المؤمن بين يدي الله العزيز الجبّار.

٥ ـ قواعد الايمان والتوحيد تصوغ الممارسة الإيمانية[١]:

يرسم الإيمان والتوحيد نهجا متميّزا للجهد والعمل والسعي. ويفصّل منهاج الله هذا النهج أدق تفصيل، ويُسميّ هذا العمل والسعي «بالعمل الصالح». وتتأكد هذه القواعد في آياتٍ كثيرة وسور عديدة، وترتبط كلها بالإيمان والتوحيد. ويتكرر النصّ للتأكيد والتثبيت: ﴿ . . . . **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** . . . . ﴾.

نهج الإيمان والتوحيد يوجه الجُهدَ البشريَّ إلى «العمل الصالح»، إلى الممارسة الإيمانية. ومن أهم خصائص الممارسة الإيمانية والعمل الصالح هو نموّ هذه الممارسة وتطورها على نهج ربّاني إيمانيّ، في كلّ ميادين الحياة الدنيا: الفكرية والعلمية والاجتماعية والأدبية والصناعية وغيرها، ليهدف هذا النموُّ والتطوُّر إلى صلاح حياة الإنسان على طُهْرٍ ونظافة، وخيرٍ وسعادة، ولمحاربة الفساد في الأرض.

هذا النهج الإيمانيّ المتميِّز برسالة التوحيد، يجعل مصدر الطاقة

---

(١) يُراجع كتاب التوحيد وواقعنا المعاصر للمؤلف. الباب الثالث ـ الفصل الرابع (ص: ٢٤٣ ـ ٢٧٥).

الحقيقية للنموّ والتطور في حياة الإنسان هو الإيمان والتوحيد ، حين يكون التوحيد هو الذي يدفع الإنسان ويوجهه، ويصوغ له فكره ونشاطه، وحين يحمل الإنسان عقيدة الإيمان والتوحيد ليخوض مرابع الخير والصلاح . فيظل هذا النهج مرتبطاً منذ اللحظة الأولى «بالنيّة» التي تربطه بمصدر الطاقة الحقيقية، النيّة التي يتميّز بها نهج الإيمان عن المناهج الأخرى التي يضل بها الناس، النيّة التي يبطل عمل المسلم إذا فسدتْ أو اختلّتْ .

ويُرسِي الإسلام عدداً كبيراً من القواعد الإيمانية لتدفع العمل إلى النموّ والتطور. فإصرار الإسلام على «إتقان» العمل دفعٌ للعزيمة إلى تطويره ليبلغ أحسن حالاته . ودعوته إلى الإحسان في العمل كذلك هو دفع للسعي إلى بلوغ ذروة الإتقان ، مرتبطاً بكل معاني الإيمان والتوحيد . ودعوته إلى المداومة على العمل ، هي دعوة إلى متابعة الإتقان والإحسان في العمل كله . وكذلك دعوته إلى الرفق في العمل والأناة ، وإلى التدبُّر والتفكير، وإلى التعاون وانطلاق الحوافز الإيمانية والمبادرة الذاتية ، والموازنة الأمينة ، والإشراف والتوجيه ، والنصح والتقويم ، ومعالجة الأخطاء والتوبة ، والشورى ، ودعوته إلى طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، إن هذه القواعد كلها ، وكثيراً غيرها ، تدفع بصورة إيمانية نشاط الفرد والجماعة والأمة ، وكذلك نشاط البشرية إلى عبقرية النموّ وجمال التطورّ، وجلال الإحسان والصلاح .

كل هذه القواعد ترتبط فيما بينها ، وترتبط مع غيرها من قواعد الإيمان ، وتتماسك كلها في منهاج ربّاني معجز هو كتاب **الله وسنة نبيه محمد ﷺ** .

ونأخذ قبسات من منهاج الله، لنرى عظمة هذا النهج الرباني وهو يحوط الإنسان والبشرية كلها بأعظم رعاية وعناية:

﴿ . . . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾. (الرعد: ١٧)

توضح لنا هذه الآية الكريمة امتداد نهج الإيمان في الأرض وفي الزمن، وثبوته ورسوخه في حياة الإنسان. كيف لا؟! والفئة الظاهرة التي تحدثنا عنها قبل قليل ماضية في الأرض تحمل رسالة الله، لاتُقهر فإنها ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، ماضيةٌ مع الزمن تُقدِّم ماينفع الناس. هذه الفئة لم تعرِّفها الأحاديث الشريفة لنا بجنسياتها ولا بقومياتها ولا بأسمائها. إنها قدَّمتها لنا بخصائصها الإيمانية وامتدادها الإنساني، بخصائصها التي تنبع من الحق، ومن منهاج رباني لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، على محجَّةٍ بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. إنها تمثل حاجة الإنسان الحقيقية في الحياة الدنيا، حاجته الصادقة النافعة، حاجته النافعة التي تدفع النمو والتطور إلى الخير والصلاح (. . . وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض).

هذا هو النهج الحق الصادق الذي أعطى للإنسان حق التفكير والتدّبر، بل أمره بذلك، حتى تتناسق قواه كلها: فكره وعقله وعاطفته وغير ذلك مما أودع الله فيه وفي فطرته، لتتناسق كلها وتتعاون وتتكامل فتدفع بذلك نهج النمو والتطور، بدلاً من أن تتصارع وتتناقض فتتبدَّد، فلا يكون التغيير عندئذٍ إلا شرّاً وفسَاداً، وفتنة وضياعاً.

وكذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. (فُصّلت: ٣٣)

هذا هو القول الحسن والعمل الصالح والممارسة الإيمانيّة التي تجمع كل خصائص النهج الإيماني ليتصل الإنسان بالإنسان فيدعوه إلى الحق، تدفعه النيَّة الصادقة والهدف الجليّ والصراط المستقيم.

وعن شدَّاد بن أَوس قال: خصْلتان سمعتهما من رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأَحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأَحسنوا الذبح، وليُحدَّ أَحدكم شفرته وليرِحْ ذبيحته».

(رواه أَبو داود)[1]

يمتدُّ الإحسان، وهو ذروة الإتقان، حتى تشمل الرحمةُ الحيوانَ عند ذبحه، وقد أحل الله ذبحه وأَكله، وما أَحلّ تعذيبه!.

وعن عائشة رضي الله عنها أَن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب إذا عمل أَحدكم عملاً أَن يتقنه». (رواه البيهقي وغيره)[2]

هذا هو الإتقان حين يكون قاعْدة إيمانية ربّانية، تحمل في داخل الإنسان المؤمن معها جميع حوافز الإتقان، مرتبطة بالنيّة والإخلاص، متوجهة إلى هدف كريم يقود إلى هدف كريم، ثمّ ترتبط الأَهداف كلها بالهدف الأَسمى، بالجنة:

---

(١) سنن أبي داود. كتاب (١٠). باب (١٢). حديث (٢٨١٥) ورواه مسلم والترمذي وابن ماجة والنّسائي والدارمي.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (١١١٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (١٨٧٦).

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ . (الإسراء: ١٩)

وأما الآخرون الذين انحرفوا عن نهج الإيمان فقد اضطرب جهدهم، وكان مصيرهم النار:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ . (الإسراء: ١٨)

إن عظمة هذا الهدف في حياة الإنسان وجلاله، هدف الجنّة والسعي إليها، إن هذه العظمة وهذا الجلال يظلّان يُلحّان على ابن آدم في سعيه ونشاطه إلى النموّ والتطور. فوضوح الهدف وجلاؤه يكون حافزاً هاماً للنمو والتطور، والوصول إلى الأفضل والأطيب والأطهر. وهو تنافس كريم بين المؤمنين، تنافس يُحرِّك كلّ حوافز الإيمان لتدفع العمل على النموّ والتطوّر. وتجتمع النية والدرب المستقيم والهدف العظيم لتكون أساس التخطيط.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ . (المطففين: ٢٤ ـ ٢٦)

إن هذا الهدف وهذا التنافس يتطلبان الصبر والمثابرة. والصبر والمثابرة من قواعد الإيمان، وخصائص الممارسة الإيمانية والعمل الصالح. والمثابرة والمداومة كذلك صفة إيمانيّة تغذّي النموّ وتدفع التطوّر إلى الخير والأصلح والأقوم. لذلك جاء حديث رسول الله ﷺ يبيّن أن أحبَّ الأعمال إلى الله أدومها حتى ولو كان عملاً قليلاً:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ». (متفق عليه)[1]

هذا هو النهج الوحيد لدى الإنسان، النهج الوحيد الذي يدعو إلى النموّ والتطور، وإلى الموازنة والعدالة، وإلى صدق الحرّية وأمانتها، وإلى سلامة الأمن والأمان. إنه النهج الذي يدعو الإنسان إلى استخدام عقله وسائر ما وهبه الله من قدرات وطاقات، حين تتناسق كلها معاً، فيتعامل الإنسان حينئذ تعاملاً صادقاً مع الحياة وسنن الله في الكون، فينمو عطاؤه وجهده، ويتطور إنتاجه وواقعه، ليبلغ الجديد النافع والحديث الطاهر، وليسعد في دنياه وينجوَ في آخرته.

هذه القاعدة العظيمة تجمع خَصَائِص التصوُّر الإيماني ليكون تصوّراً قرآنياً ربّانياً، وليصوغ للإنسان ممارسته الإيمانيّة، وليكون النمو والتطور من أهم خصائص الممارسة الإيمانية.

٦ ـ تعارف الشعوب، واتصال الأجيال، وبناء الأمة:

إن تعارف شعوب الأرض ولقاءها في بناء حياة الإنسان على الأرض، لتحقيق معنى الاستخلاف و «الاستعمار» الذي أمر به الله كما سبق أن ذكرنا ولمحاربة الفساد بكل أشكاله، ومحاربة الظلم والعدوان والطغيان والاستكبار في الأرض، إن تعارف الشعوب ولقاءها وتعاونها طاعة لله وعبادة له وتحقيقاً لواجب الاستخلاف وأداء الأمانة التي يحملها الإنسان في الحياة الدنيا، إن هذا التعارف هو مايدعو إليه الإسلام:

---

(١) صحيح مسلم. كتاب (٦) باب (٣٠). حديث (٢١٨/٧٨٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾. (الحجرات : ١٣)

إن هذا التعاون بين شعوب الأرض على هذا النحو الكريم، يجمع الجهود البشرية لتنتقل الخبرات، وتتنافس الجهود وتتكامل، ويمضي النمو في حياة الإنسان صلاحاً، والتطور خيراً، والتغيير بناء وزيادة إيمان. ولقد تفرّد الإسلام في دعوته هذه، وأرسى جميع القواعد اللازمة للقاء الشعوب على هذه الأسس الربّانيّة لخير الإنسان على الأرض فمنع الظلم والعدوان فهما معطلان للنمو والتطور والخير، وأقرّ العدل والقسط بجميع تفصيلاته اللازمة للشعوب لتلتقي عليها، ورسم السبيل، وجاء منهاج الله مفصلاً بيّنا. وحدّد الإسلام الروابط الإيمانية الصادقة التي تربط الإنسان بالإنسان، والرحم بالرحم، والشعوب بالشعوب.

ولم يكتف الإسلام بذلك. لم يكتف بتعارف الشعوب وتعاونها في عصر واحد، وإنما دعا لاتصال الأجيال كلها، لتنتقل الخبرة من جيل إلى جيل، والأمانة من جيل إلى جيل، ودعوة الله من جيل إلى جيل، في أمة واحدة ضاربة في التاريخ، ممتدّة مع المستقبل، هي أُمة الإسلام.

هكذا يبني الإسلامُ الأجيال: الابن يدعو لأبيه ويبرّ أصدقاءه ويصلهم، ويقضي دينه وحجه وبعض عباداته، ويستغفر له. وهذا إبراهيم عليه السلام يصل الأجيال كلها بدعائه:

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ

ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

(إبراهيم: ٣٩ ـ ٤١)

ونوح عليه السلام يجمع أجيال المؤمنين بدعائه:

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾. (نوح: ٢٨)

وفي سورة الأنبياء يأتي عرض مسيرة بعض الأنبياء منذ نوح عليه السلام: إبراهيم، لوط، نوح، داود، سليمان، أيوب، إسماعيل، إدريس، ذا الكفل، ذو النون، زكريا، يحيى، وعيسى بن مريم، على الأنبياء جميعهم السلام، ثم يُختم هذا العرض العظيم بهذه الآية العظيمة:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

(الأنبياء: ٩٢)

وفي سورة المؤمنون كذلك يأتي عرض مسيرة بعض الرسل والأنبياء، ثم يختم هذا العرض بالآيتين الكريمتين التاليتين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾. (المؤمنون: ٥١، ٥٢)

وهكذا بين العبادة (... **وأنا ربكم فاعبدون.**)، والتقوى (.... **وأنا ربكم فاتقون**)، تمتدُّ روابط المؤمنين كلها لتبني أمة الإسلام (**إنّ هذه أمتكم أمة واحدة....**)، (**وإنّ هذه أمتكم أمة واحدة....**).

وتتصل الأجيال المؤمنة لتدفع النموّ والتطور في حياة الإنسان، ولتضمَّ جهداً إلى جهد، وفكراً إلى فكر، وعزيمة إلى عزيمة، فتنهض بذلك حضارة الإيمان بناءً و«استخلافاً» و «استعماراً»، عدلاً وأمناً، قوة وعزةً، نموّاً ماضياً مع الدهر يحمل الخير والصلاح للإنسان.

هذا الاتصال بين الأجيال، وهذا التعارف بين الشعوب، وهذه القواعد التي يقوم عليها الاتصال، يريد أهل الحداثة قطعه، وفصله، وتحطيمه. أما سمعنا قول كمال أبو ديب: «الحداثة انقطاع معرفي. . . .»، «. . . . الحداثة انقطاع لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود. . . .». ولو رجعنا إلى النصوص السابقة في التعريف للحداثة، لرأينا أكثر من شاهد على ذلك. وسنرى فيما يلي من فصول شواهد أكثر.

وإذا كان تعارف الشعوب عاملاً من عوامل النموّ والتقدّم كما يقرّر الإسلام، وإذا كان اتصال الأجيال عاملاً هاماً كذلك في هذا الصدد، فإن بناء الأمة الواحدة وروابطها الإيمانية عامل هام كذلك في بناء النموّ والتطور، ودفع حياة الناس إلى التغيير إلى الأصلح وإلى الخير. ولقد رأينا في الآيات السابقة عظمة معنى الأمة المؤمنة الواحدة الممتدة في التاريخ، فهي كذلك أمة واحدة في كل عصر ترتبط بجميع الروابط الإيمانيّة.

نهجان متمايزان في سبيل النموّ والتطور والتغيير، ونهج الإيمان يبرز بقواعده وتناسقه وتكامله، بخيره وصلاحه، بقوته وعِزّته.

ونوجز أهم خصائص النهج الإيماني في النموّ والتطوّر والتغيير، وفي السعي للتجديد وطلب «الحديث» النافع الطاهر، كما عرضنا ذلك في

الصفحات السابقة، نوجز هذا بنقاط محدّدة للتثبيت والتذكير:

١ ـ الفطرة السوّية السليمة:

الفطرة السوية السليمة وما تحمله من نوازع وطاقات أهمها الإيمان والتوحيد وما يرافقهما من «نيّة» يتفرّد بها الإسلام، وكذلك التأمل والتفكير، وكذلك الرغبة في السعي، والبحث وطلب النموّ والتطور، وطلب «الجديد» النافع و «الحديث» الطاهر.

٢ ـ السنن الربّانيّة الثابتة في الكون والحياة:

إن ثبات هذه السنن الربانيّة أساس كل نمو وتطور، وبغيره لا يستطيع الإنسان أن ينمو ويتطور في سعيه وحياته، ولا أن يكتشف جديداً ولا يبلغ «حديثاً».

٣ ـ التفكُّر والتدبُّر والتأمل:

وهذه ميزة الإنسان، يحمل بسببها المسئولية والأمانة، ويحمل معها القدرة على البحث المستمّر عن الجديد، وعن وسائل النمو والتطوّر، ويحمل بسببها مسئولية التمييز بين الطيب والخبيث، والحق والباطل.

٤ ـ السعي المنهجيُّ الدائب للإنسان المؤمن:

والسعي كذلك سمة من سمات الإنسان، سَهّل الله له سبيلها، وذلل الأرض له من أجلها، وسخر له مافي السموات ومافي الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، لتكون الحياة ميدان سعي للإنسان وابتلاء، ولتدفع سعيه النيةُ الخالصة لله، على نهج إيماني وأهداف إيمانية، ووسائل وأساليب إيمانية كذلك، تحقق له مع سائر الخصائص السابقة إمكانية النمو والتطور، من خلال الممارسة الإيمانية بكل خصائصها.

٥ ـ قواعد الإيمان والتوحيد تصوغ الممارسة الإيمانية :

إن قواعـد الإيمان والتوحيد، حين تصوغ الممارسة الإيمانية، **تجعل** النموَّ والتطوّر في الجهد البشري من خصائص الممارسة الإيمانية. **ونورد هنا** قبسات من هذه القواعد الإيمانيّة :

أ . النيّة مع العزيمة والتصميم .
ب . الإتقان والإحسان .
جـ . الرفق والأناة .
د . التفكُّر والتدبّر والموازنة الأمينة .
هـ . التعاون .
و . انطلاق الحوافز الإيمانية والمبادرات الذاتيّة .
ز . النصيحة والتعاون من خلالها .
ح . الرأي والشـــورى .
ط . الإشراف والمراقبة والتوجيه .
ي . معالجة الأخطاء بالأساليب الإيمانية الصادقة النظيفة .
ك . التوبة إلى الله والاستغفار، والدعاء والذكر.
ل . العلم الصادق بمنهاج الله والواقع .
م . النهج والتخطيط، والإدارة والتنظيم .
ن . وضوح الدرب وجلاء الأهداف .
س . التنـافس في العمل الصالح وطلب الآخرة، لا التنافس على الدنيا وشهواتها .
ع . إن تميّز نهج الإيمان بالنيّة الخـالصـة لله، وبجـلاء الـدرب والأهـداف، والوسائل والأساليب، إن هذا التميّز يدفع إلى

نموٍّ متميز وتطور طاهر نظيفٍ.

ف . الإيمان والتوحيد هما مصدر الطاقة العظيمة التي تغذِّي النشاط وتُنمِّي طاقات الإنسان ومواهبه على صفة متوازنة عادلة، تسمح لكل طاقة أن تحقق أهدافها.

ص . هذه الخصائص الإيمانية كلها تجمع طاقات المؤمنين لتصبّ كلها في مجرى واحد من الخير والبركة للإنسان كله على الأرض، وتوفّر بذلك الفرصة الأكبر للنموّ الطاهر والجديد النافع.

٦ ـ تعارف الشعوب، واتصال الأجيال، وبناء الأُمة:

إن تعارف الشعوب واتصال الأجيال وبناء الأُمة المسلمة الواحدة، إن هذا كله حين يتمّ على أساس من قواعد المنهاج الربّانيّ، تستقرّ قواعد الأمن الحق والسلام العادل في حياة الإنسان، في حياة الشعوب كلها، لتوفّر بذلك الجهود وتجمعها على أفضل درب وأكرم سبيل للنمو والتطور.

ومع يقيننا بأن النهج الإيماني يحتاج إلى دراسة أوسع، إلا أننا عرضناه هنا بالقدر الذي نشعر أنه يناسب موضوعنا ودراستنا.

الباب الثالث

الحداثة بين النظرية والتطبيق

الفصل الأول

ولادة الحداثة ونشأتها

لو أردنا أن نتتبع جذور الحداثة وأفكارها لوجدناها كلها أو معظمها في تاريخ اليونان والرومان، وما قدَّم هذا التاريخ من فكر وخزافة وأساطير سموها أدباً، نبتت كلها في أحضان الوثنية، وامتدّ أثرها في واقع أوروبا الفكريّ والأدبي، حتى اعتبرتها أوروبا المثل الأعلى الذي يُحْتَذَى. وحين كانت تخرج أوروبا عن ذلك النموذج في شيء، فإنها كانت تحافظ على الروح الوثنيّة. حتى الدين المسيحي الذي رعاه الامبراطور «قسطنطين» ليبلغ بمساعدة رجال الدين إلى سُدَّة الحكم في روما، حتى هذا الدين تأثّر بذلك. والمسيحية أتت في أصلها إلى خراف بني إسرائيل الضالة، حيث كان يُرْسَل كلُّ نبيٍّ إلى قومه خاصة. فما استطاعت المسيحية أن تقدم حلولاً لمشكلات أوروبا. وزادت الظلمة في أوروبا حين انقطع النُور عنها وحين توقّف المدُّ الإسلامي على أبواب فرنسا من الشرق وعلى أبواب «فييناّ» من الغرب، لحكمة يعلمها الله. وربما فرح النصارى في أوروبا بنصر عسكري على المسلمين، ولو علموا الحقيقة وأدركوا عظمة الخير الذي فقدوه لبكوا أسفاً على ذلك. تجمَّعت هذه الأسباب كلُّها في واقع أوروبا لتوجِّه الفكر والفلسفة والأدب، والعلوم والأحداث، في ظلمة تغشاها ظلمة! ثمّ أخذت هذه الظلمة تمتدّ وتتسع، والنور ينحسر، حتى بلغت الظلمة بعض الأقطار العربية، وامتّدت إلى شعابها، ودار صراع فيها بين النور والظلمة!.

---

(١) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيماني» للمؤلف.

ولكن متى بدأت الحـداثـة وأين؟! فإذا كنـا نعني «الحـداثـة» بخصائصها فقط دون أن تحمل هذا الاسم، فإننا نعتبر بدايتها مع بداية الانحراف عن الإيمان حين بعث الله نوحاً أولَ رسول إلى الناس، كما سبق أن أوضحنـا ذلك في فصول سابقة. ثم أخذت هذه الخصائص المنحرفة عن الإيمان تظهر في تاريخ الإنسان على فترات مختلفة. فظهور الأفكـار المـادية والمثالية في تاريخ اليونان والرومان مثل على ذلك. ثمَّ أخذت هذه الخصائص تشتدُ وتضعفُ حتى كانت «الحداثة» الحديثة، أو العصريّة، التي ظهرت في العصر الحديث لتحمل الاسم: «Modernity, Modernism» وترجمته إلى العربية «الحداثة» أو «الحداثيّة» أو «المعاصرة».

ولكن متى بدأت هذه «الحداثة» الحديثة؟! وأين بدأت؟! اختلفوا في ذلـك! فمنهم من يعتبر بدايتها من باريس مع سنة ١٨٣٠م. ويرى بعضهم أنها بدأت في السبعينات من القرن التاسع عشر. ورأى آخرون أنها بدأت بعد سنة ١٨٨٠م. ويرى «كيرمود» أنها انطلقت مع السنوات العشر الأولى من القرن العشرين. وآخرون اعتبروا بدايتها بين (١٩١٠م ـ ١٩١٤م).

وظهـر هذا الاختـلاف على أسـاس الاختلاف في مفهوم الحداثة ذاتها، وماذا يُقصَد منها، ومن يُمثّلها. ولكننا نستطيع أن نوضح أرجح الاحتمالات:

أولاً : أنها ظهرت خلال الفترة الواقعة بين نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين.

وثانياً: أنها انطلقت من أوروبا.

ولقد ساعد على ظهورها في أوروبا تاريخ ممتدّ شارك بمختلف عصوره وأحداثه في ولادة هذه الظاهرة. ونذكر أهم هذه العوامل بإيجاز:

١ ـ الأثر الممتدّ للفكر الوثني اليونانيّ والروماني.
٢ ـ فشل المسيحية في تقديم التصور الإيماني والتوحيد للمجتمع الأوروبي.
٣ ـ التقدُّم العلمي السريع في مختلف ميادين العلوم التطبيقية.
٤ ـ عزل الدين عن المجتمع إلا بمقدار ما يحتاج أصحاب المصالح إلى استغلاله وخاصة في العدوان على الشعوب الأخرى.
٥ ـ نمو العلوم الإنسانية في اتجاهات بعيدة عن الدين، فولدّت كبراً وغروراً، ونَصَّبت آلهة متعددة كالعقل والعلم.
٦ ـ الثورة الصناعية في أوروبا وما ولدته من طبقة مستَغِلَّة وطبقة مستَغَلَّة، وامتداد العدوان والظلم في الأرض، تقوده الطبقات المستَغِلَّة، المختفِيَة وراء زخارف الديمقراطية أو مزاعم الدكتاتورية، ووراء زينة كاذبة من مبادىء مستحدثة ومذاهب جديدة، كلها تخَدِّرُ الناس، وتبعد عنهم الحقائق.
٧ ـ انتشار الفساد الخلقي والانحلال والتهتُّك، وانفلات الشهوات الجنسية انفلاتاً يقوده أصحاب المصالح والمطامع تحت شعارات خادعة مثل الحرية الفرديّة المتفلّتة في نطاق محدود، ومساواة المرأة بالرجل مساواة تسهِّل الفتنة والفساد، ولا تحمي الحقوق والحرُمات. هكذا كانت أوروبا مع انطلاقة الثورة الصناعية.

الفصل الثاني

مع الحداثة في ميادينها المختلفة[1]

امتدت «الحداثة» في أوروبا وغزت معظم أقطارها: فرنسا، انكلترا، ألمانيا، إيطاليا وغيرها من أقطار أوروبا. ثم امتدت إلى الاتحاد السوفياتي. وانتقلت من أوروبا إلى أمريكا حيث وجدت التربة المناسبة لها والمناخ الملائم لنمو جراثيمها كلها، ثمّ لتعود تطلقها أمريكا فتنة وفساداً ودماراً في حياة البشريّة كلها. ولا يتورَّعُ هؤلاء عن أن يُغلِّفوا ذلك كله باسم المسيحية والدين كلمّا وجدوا حاجة إلى ذلك.

ومن أهم معالم البيئة التي أخذت تنمو فيها «الحداثة» الانحلال الخلقي المدمّر، وانفلات الشهوات الجنسية المخدِّرة، والمذاهب الفكرية التائهة المتناقضة، والنظم السياسية التي تنظم الصراع بين أصحاب المصالح والمطامع والاستغلال، والتي تحاول بأن توفر المسوّغات لجرائمها والمخدِّرات لضحاياها، والإغراق في طلب الحياة المادية حتى لا يبقى فُسْحة لتدبّر.

في هذا الجو ترعرعَتْ «الحداثة» ونمتْ وقويَتْ، ثمّ امتدَّتُ فروعها في واقع الإنسان. ولعله من المفيد أن نأخذ بعض الميادين فندرس معالم الحداثة فيها، حتى تتبينّ لنا الخصَائص الممتدَّة، فيسهل عندئذ تقويمها.

(١) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيماني» للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع.

١ ـ الحداثة في الفكر والعلوم الإنسانية:

لقد كان من أبرز المظاهر في الحياة الأوروبية في وسط هذا الظلام هو التطور العلمي التطبيقي، وتطور الصناعة، مما سنعرض له، وظهور الثورة الصناعية. وقد انعكس هذا كله على واقع أوروبا، حيث ظهرت طبقة العمال المُستَغَلَّة، وطبقة الرأسماليين المستغِلة، وانفلات الفردية انفلاتاً واسعاً، وحيث أنزلوا المرأة إلى ميدان العمل ودوي الآلات، لتلهب الجنس والفجور، ولتنشر معها المخدرات والخمور. في هذه الأجواء يُعزَل الدين عن المجتمع لينزوي في داخل الكنائس، ولينقطع دوره ودور رجاله، إلا أن يكونوا دعاة حركات التنصير التي تبنَّتها الحكومات التي عزلت الدين عن مجتمعاتها، لتكون هذه الحركات ورجالها، وليكون الاستشراق ورجاله، طلائعَ زحوف العدوان والظلم، تمضي به جيوش أوروبا في قلب العالم الإسلامي، وعلى رأسها انكلترا التي لم تكن تغيب الشمس عن امبراطوريتها آنذاك.

لقد استطاع أصحاب المصالح وأرباب المصانع ورجال المال أن يصوغوا هذا كله في نظام أسموه «الديمقراطيّة» ليقدِّم للناس نظاماً إدارياً قوياً يحمي مصالح واضعيه من ناحية، ويُخَدِّر النَّاس ببريق الإدارة الناجحة والنظام، وبلهيب الشهوة والجنس والمخدرات، من ناحية أخرى، ويشغلَهم في الركض اللاهث وراء «لقمة العيش»، ثمّ يدفعهم قطيعاً يساق إلى مجازره، في أجواء العلمانيّة التي سادت والشرك الذي امتدّ.

في هذه الأجواء نبت الفكر الأوروبي. فظهر «أوجست كونت»

(١٧٩٨م - ١٨٥٧م) نافِضاً يديه من الميتافيزيقيا، داعياً إلى الإيمان بوجود عالم وضعيّ يحلّ فيه العلمُ الوضعيّ محلّ ماكان يسمى علم اللاهوت. فإذا كان عصر التنوير كما يسمونه، وهو القرن الثامن عشر، وهو في حقيقته عصر من عصور الظلمات، إذا كان ذلك العصر جعل العقل والمثالية إلهاً، فإن القرن التاسع عشر جعل العلم الوضعيّ هو الإله الجديدَ. وجعلوا الطبيعة والواقع كذلك إلهاً. ولكن أي واقع؟! وأي طبيعةٍ؟! وأيُّ عقلٍ؟!

هنا تبرز الظاهرة الهامة في خصائص الفكر الأوربي، حين يأخذون جزئية محدودة في الحياة، من خلال علم محدود، وبيئة محدودة، وزمن محدود، ليجعلوا منها إلهاً وثنيّاً يعبدونه، أو حقّاً مطلقاً يخضعون له إلى حين، ثم يكفرون به، ويستبدلون به إلهاً آخر جديداً. إن ماحدث في القرن التاسع عشر هو امتداد لما سبق أن ذكرناه عن القرن الثامن عشر، وعمّا ذكره «رندل» في كتابه: «جذور الحداثة».

وجاء «تين» ليعلن إخلاصه للأمور التجريدية حيث لا يظهر الجمال عنده إلا بسيادة العقل. وجاء «هربرت سبنسر» ليعلن في كتبه في علم الاجتماع وعلم النفس إيمانه بالتقدم على أساس العلم والعقل. وظهر «فرويد» و «إدلر» و «ينك» في دراساتهم في علم النفس، و «ماركس فيبر» و «إميل دوركهايم» في علم الاجتماع، وداروين ونظرياته في النشوء والارتقاء، ليقرر هؤلاء جميعهم مبدأ التقدم والتطور على أساس العلم والعقل فقط، ولينصبوا آلهةً جديدة. هنا تظهر لنا أهمية عرضنا السابق للنهج الإيماني في النمو والتطور، ولأسلوب «الحداثة» الذي نراه هنا كذلك جلياً.

ونادى «فيشته Fichte » (١٧٦٢م ـ ١٨١٤م) بسيادة العقل، ودعا إلى مبدأ النقيض ليمجِّد من خلاله العقل والحرية، امتداداً لوثنية «إمانيويل كانت» التي عرضناها سابقاً. ثمّ يأتي «هيجل» ليطوِّر الفكر على نفس الأُسس الوثنية، وليستخدم مبدأ النقيض، وليدعو إلى أن العقل المطلق هو الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ويأتي «لودفيج فيورباخ» فيؤكد «علم الواقع»، ويعتبر جوهر الواقع هو الطبيعة، ولتصبح عنده الطبيعة والواقع والحس هي الحقيقة، هي «المادية»، هي «علم الإنسان». فنصَّب «فيورباخ» الإنسان إلهاً جديداً، ليبلغ الكبر والغرور أقصى مداه. ثمّ يأتي «ماركس» ليدفع هذا الفكر كله إلى هوّة سحيقة من الوثنية والشرك، ويأخذ «ماركس» عن «هيجل» مبدأ النقيض، ليصوغ به هو و «فريدريك إنجلز» المادية الجدليّة والمادية التاريخية، وليحاربا بذلك النظام الرأسمالي، ويُعلنا صراع الطبقات.

إن هذا التبدل والتناقض الذي تمثّل أَمام الناس خلال القرن التاسع عشر بخاصة، زاد من عمق الحيرة والشك، ومن ضباب الغموض، وولَّد صدمات نفسية، سنظل نرى آثارها في ردود الفعل العنيفة والحركات المتتالية السريعة.

وتأخذ خصائص الحداثة مداها في الفكر الأَوروبي حتى تُجلَى بشكل واضح محاربةٍ للدين، ونقمة على الماضي، حَيْرةٍ وشكٍ، واضطراب وغموض.

لقد تعدَّدت الآلهةُ كثيراً، يرفعون إلهاً وصنماً ويُسقطون إلهاً وصنماً، ولكن الله الذي لا إله إلا هو، هو الواحد القهار:

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٣٩ ، ٤٠)

٢ ـ الحداثة والعلوم التطبيقية:

لقد نمت العلوم التطبيقية في تاريخ الإنسان نموّاً طبيعياً هادئاً، أو هكذا كان يبدو. فما من عصر إلا كان فيه نموٌّ وتطوُّر ساهم فيه الإنسان على مدى قرون طويلة، وساهمت فيه الشعوب كلُّها. فمنها الطب والهندسة والرياضيات والفيزياء وغيرها من العلوم التطبيقية.

إلا أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد نموّاً مذهلاً في هذه العلوم، لم تشهده القرون السابقة، ولقد نمت هذه العلوم على مناهج أخذت تستقر قواعدها شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يُقْبلون عليها كأنها حدث جديد في حياة الإنسان. وكان الإقبال شديداً بعد أن نفضوا أيديهم من الدين، حتى جعلوا من العقل إلهاً ومن العلم إلهاً. لم تكن هذه العلوم في حقيقة أمرها إلا مُكتشِفة لبعض سنن الله في هذا الكون المذهل باتساعه، وقد كشفت عن بعض آيات الله الممتدة في هذا الكون، على حكمة لله غالبة وابتلاء منه سبحانه وتعالى، ليميز الله بذلك الخبيث من الطيب، ولتقوم الحجَّة على الناس. ولكن أوروبا عميتْ أبصارها، فلم تر في ذلك آياتٍ لله لتخشع وتنيب، ولكن أخذها الكبر والغرور، ثم تمادت في غيِّها وفسادها، وانتشرت الخمور والمخدرات، ونُزِعَتْ المرأة من بيت الزوجيّة والأمومة، وأُلقيت بين هدير الآلات ليتمتّع بها المجرمون

المفسدون تحت شعار «الحرية» و«الحداثة».

لقد ظنَّ بعض الناس في أواخر القرن التاسع عشر أن تقدُّم الإنسان في هذه العلوم قد بلغ نهايته، وأنه لم يَعد هُنالَك من شيءٍ جديد يكتشفه. وفي مطلع القرن العشرين دعا «تشارلز هـ. دويل»، مفوِّض مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة، الرئيس «ماكينلي» إلى إلغاء مكتبه، مدعياً أن كلّ مايمكن اختراعه قد اخترع. ولكن منذ الإدلاء بهذا القول عام ١٨٩٩م، تمّ اعتماد أربعة ملايين براءة اختراع في أمريكا وحدها.

لقد كانت زحمة العلوم هائلة منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، زحمة أذهلت الناس كما رأينا. وكاد يستقر في أذهان الناس والمفكرين تقديس العقل والعلم، لولا أن بدأ العلم نفسه ينقض بعض نظرياته ويُعدِّل بعضها، مما بدأ يُدخِل الشكَّ في نفوس رجال الفكر خاصَّة والناس عامة. فلقد بدأ «برونتير» حياته العلمية وهو يؤمن بوجوب التطبيق الواضح لمبادىء الارتقاء على علم الأحياء والأدب على حدٍّ سواء، ولكنه ارتدّ عن ذلك ليعلن عداءه لكلِّ الموازين العلميّة، وليرفع شعار «إفلاس العلم» وليناديَ بإحلال «الحدس الصرف» محل العلم(١). ويقول «جورج سانتايانا»: «عندما كان شاباً كان يرى أن العلم له قوانين مطلقة لايطالها التغيير. ولكن بعد وقت قصير رأى النظريات العلمية تمرُّ بأطوار سريعة من التغيّر»(٢).

(١) الحداثة. (ص: ٧٧).

(٢) كتاب «الحداثة». (ص: ٧٩).

أمام هذه التغيّرات ازدادت الريبة في الماضي، والحَيرة أمام الحاضر، والقلق بالمستقبل. وبرزت التناقضات في واقع الناس وفي بعض النتائج التي يَصِلون إليها. وقويت الرغبة في تحطيم الأطر والأنماط والنظم مما يتعلّق بالماضي، في سبيل البحث عن جديد. وأصبحت هذه المظاهر صفات أساسية في «النهج الحداثيّ» البعيد عن النهج الإيماني: الريبة والشك، القلق والحيرة، النقمة على الماضي ومحاولة تحطيم أطره ونظمه، ومحاولة الجمع بين المتناقضات.

نعم لقد أدَّت هذه العلوم التطبيقية خدمات مادية جُلّى للإنسان لا مجال لسردها هنا. ويكفي أن نذكر مثلاً في الطب: القضاء على بعض الأمراض كالدَّرن والجدري، هبوط نسبة الوفيات في الأطفال. ففي الولايات المتحدة كانت نسبة الوفيات (١٦٢) بين كل (١٠٠٠) مولود سنة ١٩٠٠م، وقد هبطت هذه النسبة ومازالت آخذة في الهبوط، ومن المحتمل أن تبلغ (١٤) حالة وفاة سنة ١٩٩٩م. ومنذ أكثر من (٢٥٠) سنة فحسب، لم تترك «آن» ملكة انكلترا ورثة بعد أن أنجبت ثلاثة عشر طفلاً ماتوا جميعاً قبل العاشرة .

ولكن هذه العلوم جميعها لم تستطع أن تحل مشكلات الإنسان في نفسه وعلاقاته. إن التكنولوجيا أو التقدم الفنّي يمكن أن يحلَّ مشكلات الآلة ومايشبهها من مشكلات الإنسان. أما المشكلات السياسية والاجتماعية والنفسية والخلقية، والمشكلات التي يصنعها الإنسان بنفسه، سيظلُّ يجابهها هو بنفسه، ولن يجد من الآلة والتكنولوجيا أكثر من عون محدود مهما عظمت الآلة ونَمَتْ.

فجابه الإنسان هذه المشكلات كلَّها، وبحث عن حلولها في كل مالديه، فما وجد الحلَّ الذي يطمئن إليه، وهو ينتقل من جديد إلى جديد في مذاهب تنقله من ظلام إلى ظلام، على غير نهج مستقرٍّ أو سبيل مستقيم.

وأكثر من ذلك، فقد تطورت العلوم التطبيقية لتبيّن للإنسان زيادة اتساع المجهول من هذا الكون أمامه-كلما توغل قليلاً، بدلاً من أن يضيق المجهول أمامه. وزادت المشكلة صعوبة حين أصبحت هذه العلوم تقدّم له سلاحاً يدمّر حياته ويهدد مستقبله. فإذا هبطت نسبة الوفيات بسبب تقدم الطبّ، فقد ارتفعت كثيراً بسبب الحروب. وإذا اختفت أمراض كالدرن والجدري، فقد ظهرت أمراض أخرى أحدثها، وليس آخرها، «الإيدز». وأصبحت القنابل والصواريخ اليوم مصدر هلع للبشرية كلِّها. ذلك لأن العلوم انطلقت في مسار حداثيّ محض، بعيد عن الإيمان والتوحيد، فلم يَعُدْ هنالك ضابط على صناعة الأسلحة وشهوة الانتقام، ولا على استخدامها، إلا الهلع والفزع. وستبقى «هيروشيما ونكازاكي» مثلاً مرعباً لفقدان هذه السيطرة، ولانفلات النهج الحداثي في ميدان العلوم. وحسبنا أن نعلم انَّ القرن العشرين شهد مصرع (١٢٠) مليون شخص قتلاً في الحروب التي وقعت فيه، والتي بلغ عددها (١٣٠) حرباً، وهذا العدد يفوق عدد من قتلوا في كل الحروب قبل سنة (١٩٠م). وحسبنا أن نرى أنه عندما انتشر مرض «الإيدز» المرعب، لم تهتّم الدول الكبرى في أن تعالج أسباب المرض أبداً، وإنما أصرت على بقاء الإسباب وهي في نفس الإنسان، وفي انفلات شهوته وهواه، واكتفت بمعالجة أعراض المرض وهي في جسده. وهذا فرق رئيسي بين نهج الإيمان

والتوحيد الذي يعالج أسباب المشكلات والأمراض من جذورها، وبين أسلوب «الحداثة» المنحرف عن الإيمان، الذي يعالج الظواهر ويُنمي الشهوة والهوى.

إذا كان هذا هو تأثير الأسلوب الحداثي في العلوم التطبيقية في واقع الإنسان، وللعلوم التطبيقية قواعد مستقرة في البحث والدراسة تقريباً، وإذا كان الأسلوب الحداثيّ وخصائصه دفعت الفكر والعلوم الإنسانية كما رأينا، فما هو دور الحداثة في ميدان الفنون والأدب، وماذا كان تجاوبها مع ذلك الضغط الهائل في المجتمع؟!

٣ ـ الحداثة في الفنون والأدب:

لقد كانت الفنون متنفسًّا واسعاً لذلك الضغط الهائل. وكان الأدب باباً واسعاً للتعبير عن كل هذه المتناقضات. هنا في ساحة الأدب والفنون كانت ملامح الحداثة أوضح، لا لأنَّ الحداثة مختصَّة بها، ولكن لأن الأدب والفنون أقرب للناس عامة، وأوسع انتشاراً.

أمام هذا الضغط الهائل من الحيرة والشك والتناقضات والإفلاس، وجد الإنسانُ الهروبَ أيسر السبل، الهروبَ إلى الرمز ليُخفي وراءه شعوره وفكره وكلمته وكذلك سلوكه. وخرج «بودلير» مع مالارميه وفاليري في فرنسا، ليقودوا الحركة الرَّمزية في صورة انحطاطية كما سُمّوا أول أمرهم، ومعهم الكاتب الأمريكي «إدجار ألن بو». ولقد حملت الرمزية معها وقاحة التعبير واضطرابه على صورة تخلخل المعنى أو تحطَّمه. وأصبح الرمز هو الصنم الجديد.

وتطورت الحركة الرمزية إلى بعد أعمق في الغموض، تطورت إلى

الحركة الانطباعية التي تلجأ إلى إسلوب تعبّر به عن الانطباع الموحّد للمعنى في اللون أو الضوء. إنهم يعتقدون أن الأشياء ذاتها تتحطم وتزول، فليست في نظرهم هي المهمة، ولكنها تترك آثارها وانطباعها. نجد نماذج من ذلك في قصيدة لـ وايلد: «سيمفونية باللون الأصفر»، وفي المجموعة الشعرية لـ «ماكس دوثندي» المسماة «فوق البنفسجية». وهم يرون ضرورة إحياء قوة اللون كتجربة حضارية. وقد مثّلت الحركة الانطباعية، والحركة الرمزية قبلها، بداية الهجوم على اللغة، وهي تحاول التخلّص من جزئيات اللغة كالحروف. وأخذت الحركة الانطباعية اتجاهات عدة عند «مونيه»، و«ريلكه»، و«هولز» وغيرهم(١).

وظهرت الحركة المستقبلية في إيطاليا مع بيانها الأول سنة ١٩٠٥م يعلنه «فيلنو توماسو مارينيتي»، لتوغل في الغموض والاضطراب بين الأدب والسياسة. أعلنوا أنهم سيبتكرون «الخيال اللاسلكي» الذي سيتمخّض عن توليف متجانس لعناصر الكون التي يمكن احتواؤها بنظرة خاطفة. غرور وكبر تحوّل إلى صدمة نفسية هائلة عند فشلهم. وضع «مارينيتي» في مقدمة كتابه المسمى «زانك تم تم» عنواناً: تحطيم النحو - خيال لاسلكي - كلمات حرة. فأوغلوا بذلك أكثر من الحركات السابقة في محاولة تحطيم اللغة. ودعوا إلى الشعر الحرّ الذي كان قد ابتكره «كوستاف كان»، ليكون الشعر الحرُّ باباً لضياع أوسع، للكلمة الحرّة المتفلتة من معانيها وقواعدها، ولتتحوّل الكلمة إلى مقاطع صوتيّة غامضة هيستيرية مثل :«سي سي سي سي سي»، وينقل هذا الهوس عنهم إلينا

---

(١) كتاب «الحداثة» مالكم برادبري وجيمس مَاكفرلن. (ص: ٢١١ - ٢٣٢).

«أدونيس» و«كمال أبو ديب» وشاعر يقول في قصيدته: «ستزن ستزن ستزن». ثم تتحول الكلمات عندهم إلى رموز رياضية, « + - + - + + x » لتعبّر عن حركة ناقل السرعة في السيارة. وقد نقل «كمال أبو ديب» هذا الهوس إلينا في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي». وأصدر «أبولونير» سنة ١٩١٣م كتابه «العداء المستقبلي للتراث». ليكشف عن هذا الاتجاه الرئيسي للحداثة. وارتبطت الحركة المستقبلية في إيطاليا بالفاشيّة، وأمضى «مارينيتي» واحداً وعشرين يوماً في السجن مع موسيليني.

أراد «مارينيتي» أن يلقي خطبة شعرية حماسية. فأخفى أحدُ أصدقائهِ نفسَه في أحد أركان الصالة. وبإشارة من «مارينيتي» أخذ يقرع طبلاً عملاقاً. فاندهش الحاضرون وهم يتساءلون كيف استطاع صوت «مارينيتي» أن يفعل هذه الضوضاء الخارقة!

أما الحركة المستقبلية في روسيا فقد رأسها «فلاديميرماياكوفسكي»، وأعطى نفسه لقب «زارداشت زماننا الصخاب»، وذلك في قصيدته «سروال في سَحَابــة» لقب وثنيّ، وعنــوان غائم، وإلحادية علنيّة. واعتمدت هذه الحركة الكلمات الصوتية مثل الحركة في إيطاليا كذلك في مثل قصيدة: «دربل إشكل، ابشكر، سكم، مي سوبو، رل ينر». مقاطع صوتية لا معنى لها في أي لغة. ولكن هذه المدرسة مع كل عجائبها وحربها على التراث والدين واللغة، حاربت الرمزيين. وأصدرت هذه الحركة بيانها سنة ١٩١٢م، وأسموه «صفعة في وجه الذوق العام»، وجعلت هَمّها غسل الكلمات وتطهيرها من طلاء التراث الأدبي. وهذه المَهمّة دعا إليها أدونيس وكمال أبو ديب وغيرهما من رجال الحداثة في إجماع

يدور كلُّه، مهما اختلف اللفظ، حول قول أحدهم «إن الشاعر يحرر الكلمة من معانيها ومما علق بها من غبار السنين فيطهِّرها ويغسلها . . . »، ويقول أدونيس في كتابه مقدمة في الشعر العربي: «يصبح الشعر في هذه الحالة ثورة مستمرَّة على اللغة»[1] ويقول: « . . . . وتصبح اللغة غابة شاسعة كثيفة الإيقاع والتوهج والإيحاء لاحدَّ لأبعادها فتُفرغ الكلمات من معانيها الموضوعة سابقاً في المعاجم أو على الألسنة»[2]. ويقول كمال أبو ديب في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي»: «وهكذا يكون تطور الإيقاع فاعليَّة بنيوية تنبع من سبْكة العلاقات المتكونة ضمن البنية وجدليتها. ويختفي وراءها التراث الشعريّ في اللغة بتاريخه المعقد الطويل»[3].

إجماع حداثيّ واضح على خرب اللغة والمعاني والتراث. ويلتقي من أجل ذلك حداثيو العالم الإسلامي مع حداثيي أوروبا، في ساحة واحدة، وفي تبعية ذليلة وتقليد مهين، ليرسموا خصائص واحدة للحداثة، يلتقون عليها أولاً، ولا بأس لديهم إذا اختلفوا بعد ذلك في أمور فرعية أخرى، تقودهم الحركة المستقبلية القوميَّة الإيطالية الفاشيّة حيناً، والحركة المستقبلية الرّوسية الشيوعية حيناً آخر، والنزعات الأخرى المماثلة هنا وهناك.

وقدّمت الحركة المستقبلية في روسيا نموذجاً جديداً من الشعر

(١) مقدمة في الشعر العربي (ص: ١٢٦).

(٢) المرجع السابق. (ص: ١٢٨).

(٣) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ١٠٥).

الحـــديث، عُرِف بالكـــونكـــريتي «Ferro Conerete Poetry» ليمثّـل فنّ التهـريج، وليعتمـد لا على اللغة وبيانها، ولكن على القراءة والصوت والتمثيل. ووضـــع «فليمـير خليبنكـوف» قصيدة «تعـويذة عن طريق الضحك» لتمثل أسلوباً آخر في تحرير الكلمة وتحطيم اللغة.

وطـالب بيان المستقبليين في روسيا بإعـطاء الحقّ للشعـراء في رفد الناس بمفردات وكلمات مبتكرة ملفّقة، كما أعلنوا كراهيتهم غير المحدودة للغة التي ورثوها. ولقد نافسهم الحداثيّون في بلادنا في هذا المضمار كما سبق أن ذكرنا قبل قليل. كما نافسوهم في تلفيق مصطلحات ومفردات خارجة عن اللغة أو خارجة عن الوضوح غارقة في الغموض. ولننظر في أمثلة من ذلك: التموضع الزمكاني، الممرئية، النحن، الرؤيوية، وغير ذلك.

ويدعو ماياكوفوسكي الشمس لتشرب معه كوباً من الشاي، وذلك في قصيدتـه: «مغـامـرة خارقـة قام بها فلاديمير ماياكوفوسكي في كوخ صيفي». ويهدف من هذه الدعوة للشمس إلى أن يُعطّل حركتَها الأبدية، الشروق والغروب، اللتين ملّهما الشاعر.

صورة واضحة لمحاولة الثورية على سنن الله في الكون، سنن الله الثـابتة. وستظل الشمس تشرق وتغيب، وينتحر ماياكوفسكي وتنتحر أفكاره، ويطويه الرَّدى، ويطوي أمثاله، وتظل سنن الله ماضية، آيات بينات تشهد أن لا إله إلا الله:

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ

﴿ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ .

(فاطر: ٤٣)

وظهرت في هذه الحركة «المدرسة الشكلانية» مستلهمة بعض قواعد علوم اللغة التي جاء بها سوسير، وممجدة في الوقت نفسه كل شذوذ الحركة المستقبلية، وساهمت هذه الحركة في بلورة ما يُسمى «الإشارات الدالة» «Semiotic Theory» . ويقول «ياكوسبون» إذا كان المعنى سابقاً يبحث عن القوافي في الشعر، فإن القوافي في شعر خليبتكوف وماياكوفسكي هي الآن تبحث عن معنى . والذي نراه نحن أن كلام ياكوسبون نفسه على طرافته هو الـذي يبحث عن معنى كذلـك . وانتهت حياة ماياكوفسكي وغيره بالانتحار، وعاش آخرون في بؤس وعذاب . وأعلنت الحركة المستقبلية إفلاسها، لتحمل الراية بعدها الحركة «التعبيرية» منطلقة من باريس من ميدان الرسم مع «بيكاسو» و«بارك» و«فان كوخ» . ثم تمتد إلى الأدب في ألمانيا، حيث عبّر أحدهم عن هدفهم بوضوح، وهو يتحدث عن مجلة أصدرها: «إن المجلة جاءت لتقوض المجتمع القائم» . لم تعد الثورة على القـديم فقط، وإنـما امتـدت إلى الـواقـع . وأخـذ التعبيريون يهاجمون المؤسسات القائمة كلها، ويقولون إنه لما أصبحت اللغة أداة في خدمة أغراض نفعية لهذه المؤسسات، فقد أصبحت عاجزة عن القيام بمهمتها التعبيرية، فانصب هجومهم على «النحو» التقليدي، وحمل هذا الهجوم إلينـا تلامذةٌ واتباع لهم من بعض الحداثيين في العالم الإسلامي . وزاد الغموض لدى الحركة التعبيرية وزادت الرغبة في التحطيم، والرغبة في تفجـير المجتمـع . ولكن بدلاً من ذلك كله فجروا أنفسهم وتفرقوا بين المذاهب السياسية القائمة من شيوعية وغيرها .

كانت الحركة التعبيرية تحاول أن تستنبط «لغة تعبيرية جديدة» يخضع لها الواقع الذي كانوا يدعون إلى تحطيم مؤسساته. فلما فشلوا في ذلك وتمزقوا، جاءت الحركة، «الدادائية» لتدعو إلى أن تعيش الواقع وانحطاطه وانحطاط القرن العشرين، ولتحارب التعبيريين، ولتنحو منحى اليسار الدائم والثورة. ولكن صراعها انتهى بالاستسلام النهائي الذي لا حدود له، متميزة بمهاجمة قواعد النحو والمنطق مغرقة بالفوضى والتناقض. وكان بعضهم يرى أن على الحركة التمسك بالغموض، فإنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والوضوح والاستقامة. ومن قلب الحركة الدادائية ظهرت بذور الحركة السريالية لتعتمد فنَّ إثارة الفضائح تحت شعار حرية التعبير، وليغذوا لهيب الجنس. واعتبروا «أن العقل وحده قادر على جمع شظايا العالم وربطها». وامتد نشاط هذه الحركة في ميادين الأدب والرَّسم. وأخذوا يسعون إلى اقتراح لغة جديدة للناس. كتب شاعر سريالي مكسيكي يقول: «لا تعتزم السريالية كتابة قصائد جديدة بقدر ما تعتزم تحويل الناس إلى قصائد حية». هوس وغموض ومغالطات، وتعبيرات ضبابية يقول أحدهم: «إنهم يتطلعون إلى ذلك اليوم الذي تكون فيه الطبيعة الإنسانية والإنسان الطبيعي يتحاوران معاً..». ودخلت السريالية جميع ميادين الفنون ماعدا الموسيقى.

لقد أبرز العرض السابق في متابعة الحداثة في ميدان الأدب والفن إلى تأكيد خصائص الحداثة التي سبق عرضها في الميادين الأخرى، وإلى إيضاح خصائص أخرى أهمها المغالطات الفكرية من خلال طنين التعبير وحلاوة جرسه، مثل: «الإنسان الطبيعي والطبيعة الإنسانية، المعنى

يبحث عن قوافٍ والقوافي تبحث عن معنى، حدس، مقامات، حالات، غيبوبة، تركيب جدلي وحوار رحب لا نهائي بين هدم الأشكال وبنائها. . .، حدسية إشراقية إبداعية رؤياوية، هنا سيّالٌ أبديّ المفاجئات تتدافع في المدّ الخلّاق نحو المجهول. . .». تعبيرات لا حصر لها من هذا النوع تدخلك في غموض وتيه، وظلمة وضياع.

ومن أساليب المغالطات مثلاً ما يقوله كمال أبو ديب: «والحداثة تعني التغيير بوصفه حركة تقدم إلى الأمام. وذلك سرُّ مأساتها. فكل تقدُّم هو انفصام عن ماض. ومن هنا كان وعي الحداثة لذاتها بوصفها انفصاماً. والإنفصام دائماً فعل توتر وقلق ومغامرة. . .»[1]. هكذا يؤثر الحداثيون في القراء العاديين، حين يضعون مثل هذه المغالطات، لتنساب بهدوء كأنها حقائق مطلقة لا يأتيها الباطل. لماذا يكون كلُّ تقدم انفصاماً عن ماض؟! لماذا لا يكون امتداداً ونمواً وتطوراً كما تنمو الشجرة فتحمل الغصون والورق والثمر؟! ألا يمكن أن يتم بهدوء وسلام، ورضاً وفرحة، كانفصام الإنسان عن الشرِّ ودخوله في طمأنينة الهدى وسكينة الإيمان؟! مغالطة أخرى واسعة! أما الانفصام، كما ذكره، فلا شك أنه مأساة الحداثة أو سرُّ مأساتها، بسبب المغالطة لا بسبب ما يدعيه من انفصام.

ويقول كمال أبو ديب أيضاً: «الحداثة انقطاع معرفي»! ويشرح هذا التعبير الغامض الذي صاغه من ظلامه وتيهه فيقول: «ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في مصادر التراث، . . . والفكر الديني، وكون الله

---

(١) مجلة الفصول المجلد (٤) العدد (٣) ١٩٨٤م.

مركز الوجود. . . الحداثة انقطاع معرفي لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان هو مركز الوجود. . .»[1]

إذن هو فتنة صريحة دخلت العالم الإسلامي من أبواب الفكر والأدب والسياسة والإعلام. ولم يَقِلَّ رجال الحداثة في الغرب ولا في غيره عن هذا المستوى في إعلان الفتنة ومحاربة التراث كله بنصوص صريحة لا مواربة فيها، ودعم الغيبوبة وأفكار الصوفية المنحرفة وغير ذلك، من خلال صياغات تتميز بأشكال مختلفة من الجرس والتلاعب بالألفاظ، لتسوق مغالطة بعد مغالطة.

فصلاح عبد الصبور في ديوانه «أقول لكم» فيما يسميه قصيدة «الظل والصليب»، يقول: «هذا زمان السأم، نفخ الأراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين إليتي رجل سأم». ويقول: «ملاّحُنا ينتف شعر الذقن في جنون. يدعو إله النقمة المجنون أن يلين قلبه ولا يلين. ينشده أبناء وأهله الأدنين، والوسادة التي لوى عليها فخذ زوجه، أولدها محمداً وأحمداً. . . وسيّدا. وخضرة البكر التي لم يفترع حجابها إنس ولا شيطان يدعو إله النعمة الأمين أن يرعاه حتى يقضي الصلاة، حتى يؤتي الزكاة، حتى ينحر القربان، حتى يبتني بُحرّ ماله كنيسة ومسجداً وخان. للفقراء التاعسين من صعاليك الزمان».[2]

ويقول في نفس القصيدة (ص: ٦٧): «إنسان هذا العصر سيّد الحياة»! ويقول في قصيدة «قدّيس» (ص: ٨٦) من الديوان:

---

(١) مجلة الفصول مجلد (٤). عدد (٣). سنة ١٩٨٤م. (ص: ٣٧)

(٢) ديوان «أقول لكم». (ص: ٦٥، ٦٨).

«وقالت لي: بأن النهر ليس النهر، والإنسان لا الإنسان، وأن الله قد خلق الأنام ونام. وأنَّ الله في مفتاح باب البيت».

سبحانه وتعالى عما يقولون علوّا كبيراً.

ألفاظ المسيحية منتشرة عندهم كثيراً كما رأينا هنا، «القديس»، «الصليب»، وكذلك ألفاظ الصوفيّة!

ولم يكن صلاح عبد الصبور الوحيدَ في هذا الهبوط. فَقد كان هذا محور فكر أقطاب رجال الحداثة كلهم. فاسمع أدونيس وهو يعلن تصوره، وهو يخوض في أوحال الوثنية: «الله في التصوّر الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة، متعالية، منفصلة عن الإنسان. التصوُّف ذوّب ثبات الألوهية، جعله حركة في النفس، في أغوارها أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. وبهذا المعنى قتله (أي الله) وأعطى للإنسان طاقاته. المتصوّف يحيا في سكر يُسْكِر بدَوره العالم. وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحداً. صارت المعجزة تتحرَّك بين يديه»[1].

سبحان الله العظيم. سبحان الله رب العرش العظيم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

(الأنعام: ٥)

٤ ـ الحداثة في السياسة والإقتصاد:

لقد رأينا خلال العرض السابق كيف دخلت بعض الحركات الحداثية في قلب السياسة ونشاطها. فالحركة المستقبلية في إيطاليا ضربت بسهم وافر في ذلك، وسُجِنَ «مارينيتي» مدة واحد وعشرون يوماً مع

---

(١) كتاب مقدمة في الشعر العربي لادونيس. (ص: ١٣١).

موسيليني وآخرين، بتهمة تكوين عصابات مسلَّحة. وقد أوغلت الحركة مع النشاط الفاشي، وتبنَّوا الرُّوحَ القَومية الإيطالية حتى جاء بيانها سنة ١٩١١م يقول: «يجب أن تسيطر كلمة إيطاليا على كلمة حريَّة». أما في روسيا فقد كانت الحركة المستقبلية تتبنّى الفكر الشيوعي مذهباً وسياسة، فاتحدت هنا مع البلشفية كما اتحدت في إيطاليا مع الفاشية وهاجمت الحركة التغييرية المؤسسات الاقتصادية والسياسية في أوروبا، لأنها تمثل الاستغلال والظلم، وحاربت الأدب الرمزي والانطباعي لارتباطه بتلك المؤسسات، دون أن يكون لديهم تصور سليم للعدالة والحق، وتاهوا في ظلم أشد وفساد أوسع، وتَمزَّقوا شذر مذر. وامتدَّت الحركة الدادائية بين مدن أوربا وأمريكا وهي تخوض صراعاً فكرياً وأدبياً وسياسياً، حتى أطلقت المجلة الباريسية «التراتوز» سنة ١٩١٩م سؤالها الكبير: «لماذا نكتب؟! لمن نكتب؟!». حيرة ويأس قاتلان.

والحركة السريالية امتدت بين جميع أجزاء أمريكا الجنوبية واليابان وجزر الكناري ودول أوروبا يساعدها على ذلك انضباطها التنظيمي ومبادئها المغرية في طنينها الاجتماعي والسياسي، ودخولها جميع ميادين الفنون ماعدا الموسيقى.

ولقد تفاعلت الحركات الحداثية مع واقع المجتمع، واتخذت من مختلف ميادين النشاط منابر لها، وكان الميدان السياسي واضحاً في نشاطها. وامتدّ أثر النهج الحداثيّ في الفكر السياسي امتداداً بعيداً. لقد قامت الديمقراطية وكان أهم مَعْلَمٍ لها، وأهم مسوِّغ لوجودها وقيامها هو العلمانية وعزل الدين عن المجتمع. نعم! لقد عُرفت الديمقراطية

باستغلالها الدين استغلالاً قبيحاً في جرائمها السياسية وفي دعم المستشرقين وحركات التنصير، كما ذكرنا. ولقد ظهرت المادية الجدلية والتاريخية والماركسية العلمية كردِّ فعل للديمقراطية التي استغلت الطبقة العاملة، وأغنت الطبقة الرأسمالية. ودار الصراع بين الحركتين حتى يومنا هذا، حتى أصبح في حقيقة أمره يمثل محور السياسة الدولية في واقعنا المعاصر.

إن السياسة التي تُمارَس اليوم تتميز بظاهرتين هما من أهم خصائص الحداثة ونهجها: العلمانية واستغلالها للدين في جرائمها وعدوانها، وكذلك المكيافيلية. والشعارات الإنسانية لم تتجاوز دائرة المؤتمرات والندوات والإعلام. تُعلَن حقوق الإنسان ثمّ يُسحق الإنسان بعد ذلك بألف وسيلة. إن الديمقراطية تسحق الإنسان بالتخدير في لهيب الجنس والخمور والمخدرات وإفلات الحرية الفردية. والحرية الفردية تنتهي عندما تصطدم مع مصلحة القوى الخفيّة المسيطرة. والدكتاتورية تجمع اليوم أدوات السحق كلها: البطش والتخدير، وإذا لزم الأمر «فالتنويم».

إن التفلّت من نهج الإيمان والتوحيد يترك الإنسان ريشة في مهب الريح طائرة، تتقاذفها الأهواء فلا تستقر.

لقد أخذ الصراع السياسي أعنف صورة في تاريخ الإنسان، وهو يحمل هاتين الصفتين الحداثيّتين: محاربة الدين حتى لايؤدي دوره الحقَّ في المجتمع واستغلاله لتحقيق مطامع القوى الجشعة الطاغية، وكذلك النهج الميكافيلي في تحديد العلاقات بين الدول. ولقد تمثل هذا العنف بحربين عالميّتين كبيرتين، وبحروب أخرى ممتدة في الأرض كلها، جعلت

الأرض تبدو كأنَّها لهيب حروب، حتى بلغ عدد الحروب خلال القرن العشرين بحدود (١٣٠) حرباً وزاد عدد الضحايا فيها عن (١٢٠) مليون نسمة، ومازالت الدماء تتفجّر في الأرض هنا وهناك بين مظالم وعدوان وطغيان تحركه مطامع القوى المتسلطة اليوم.

وفي واقع عالمنا الإسلامي دار معظم الشعر الحداثيّ حول السياسة لتكون قضيته الأولى هي «السلطة». ففي مقالة كمال أبو ديب يتحدث عن الحداثة والسلطة يقول: «تبدو الحداثة مسكونة بالسلطة، بل إنها تبدو وعياً مشبوحاً بالسلطة بعنفها وبربريتّها وتعسُّفها. تصبح السلطة بيت الحداثة الذي فيه تنمو»[1]. ومضت الحداثة على ذلك في قلب الوسط اليساري في العالم العربي، الوسط اليساري بمختلف تجمعاته. فمن شيوعي ملتزم أو اشتراكي حائر أو قومي أو بعثيّ، إلى غير ذلك من التجمعات التي مثلت النهج اليساري. ولقد كان الجهد الأول لهذه الاتجاهات هو الشعارات الوطنية، ومهاجمة السلطة، ومحاربة الرأسمالية، ولكنها تطرح من خلال بريق هذه الشعارات حلولاً مرفوضة من وجهة النظر الإيمانية، كما حدث في قضية فلسطين مثلاً، وفي غيرها.

والظاهرة الغريبة التي تحتاج إلى تفسير هي أن الصحافة غير اليسارية فتحت أبوابها لهذا الأدب، ويظل أدب الإيمان يتيماً، حائراً، لايجد الفُسْحة حتى في الصحافة الإسلاميّة ووسائل إعلام العالم الإسلامي! وأكثر من ذلك فإنَّ رجال الحداثة تتلقّفهم وسائل الإعلام الأجنبية

---

(١) مجلة الفصول العدد (٣) المجلد (٤) سنة ١٩٨٤م.

والـدولية، وتضفي عليهم الـبريق والدعاية والإعلام، وتبرزهم في كل مـدان: فى الرسم التشكيلي، في الشعر الحديث، في القصة المنحرفة، وتفرَدُ لهم المهرجانات الواسعة، على مستوى دوليّ.

أمـا الاقتصاد فقد جمع كذلك خصائص الحداثة الرئيسية ومضى معهـا، فغـذّاهـا وغـذّتـه. لقد حملت الرأسمالية الخصائص الأساسية للحـداثـة كما حملت الـديمقراطية في السياسة، وحملت الاشتراكية من خصائص الحداثة ما حملته المادية الجدلية والمادية التاريخية في الفكر، وما حملته ديكتاتورية البروليتاريا في الواقع السياسي.

من هنا تبرز «للحداثة» صفتها الفريدة العجيبة، وهي قدرتها على جمع المتناقضات. لقد ظهرت في العالم الرأسمالي الديمقراطي، وعاشت فيه، ونمت وترعرعت. وغذاها العالم الرأسمالي في أمريكا وفرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا وسائر دول أوروبا، والدول الاسكندنافية. وظهرت في قلب الاتحـاد السوفياتي، وفي قلب الحزب الشيوعي، وبرز فيها شعراء مشهـورون مثـل «خليبنكوف» و«ماياكوفسكي» وغيرهما. والحداثة هي الحداثة هنا وهناك.

ولقد كان معظم رجال الحداثة في بعض الأقطار العربية من الاتجاه اليساري فيها. وإن لم يكونوا من اليساريين فإنهم من «الطبقة العائمة» التي قد تنتسب للإسلام ولا تلتزم به، وتحاربه إذا واتت الفرصة، وتعلن إسلامها مع غيرها دون التزام بالطبع حين يضطرها الواقع. وقد تتبنّى الشعارات الوطنيّة من خلال ولاء فاضح مكشوف للشرق أو للغرب. وقد تجد مرتعاً لها في أجواء القهر والهوان الذي تعيشه بعض الأقطار العربيّة،

بسبب ماكسبت أيدي الناس من تخاذل وتقصير، وجهل وأهواء.

لقد كان من أخطر ما رافق ظهور الحداثة في القرن التاسع عشر على النحو الذي عرضناه ظهور «الحركة الصهيونيّة»، لتكون مثل الحداثة ملتقى المتناقضات، ولتُجمِعَ على تأييدها السياسةُ الدولية كلها، الدول الغربية والشرقية، والرأسمالية والاشتراكية، والديمقراطية والديكتاتورية، ثمّ لتتولّى الحركة الصهيونية نفسها الإعلام المنهجيَّ المركّز للحداثة في ميادنيها المختلفة، ولرجالها المتعدّدين. وساهمت الحركة الصهيونية بنشر الانحلال الخلقيّ، والفتنة والفساد في الأرض، والجرائم والعدوان، وليتمثّل ذلك كله في أوسع جريمة عرفها الإنسان في تاريخه، ألا وهي العدوان الدوليّ على فلسطين المسلمة تقوده الصهيونيّة.

إن أفضل مالدى الديمقراطية مما يتوهمه أبناؤها ودعاتُها وأتباعها، كالحرّية الفردية المتفلّتة، وحقوق الإنسان المزعومة، هي أقلّ بكثير مما يقَدِّمه الإسلام من الحرية المتكاملة المتوازنة، وحقوق الإنسان المترابطة بالعقيدة والإيمان، وحرية الرأي المحميّة بالقرآن والسنة، ومنهج الحياة المتوازن المتناسق، وكرامة الإنسان التي يصونها الطهر والحرية والأمن والعدالة. وإن شرَّ ما تدعو إليه الديمقراطية، وهي العلمانية، هو أخطر ما يحاربه الإسلام، حين يدعو إلى الإيمان والتوحيد.

الولايات المتحدة الأمريكية والغرب معها تريد أن تدعو إلى تلك الديمقراطية، لينال الإنسان بها عندهم خدر الحرِّية المتفلتة، وليُسْحَقَ الإنسان بها عندنا. ويريد الاتحاد السوفياتي أن يدعو إلى الشيوعية في الأرض كلها دعوة كفر وإلحاد ألا يريد المسلمون أن يدعوا إلى الإسلام،

وأن يبلغوا رسالة الله إلى الناس؟!

وإن كان للديمقـراطية والشيوعية من تفـوّق فإنـما في التفصيلات التـطبيقية التي وضعـوهـا لنـظرياتهم، حتى تأخـذ سبيلها إلى الممارسة والتطبيق. ولقـد قصَّر المسلمـون في ذلـك كثيراً حين لم يضعوا المناهج التنفيذية التطبيقية للحق المطلق الذي يدعو إليه الإسلام. فمازلنا ندعو للشورى ونحصر دعوانا في أن الشورى معلمة أم ملزمة. ثم لم ننجح بعدُ في تطبيقها مُعلمةً ولا ملزمة، ولم نضع لها مناهج الممارسة والتطبيق. وامتاز أولئك عنا بالنظام المفصّل والإدارة المتطورة والنمو العلمي، أبواب فتحها الله لعباده كلهم، لمن شاء أن ينهض بجهده وجدِّه، مهما كانت عقيدته ونـظامه. فلقد تقدّم الإنسان في تاريخه الطويل في هذه الميادين في ظل مختلف العقـائد التي عرفها. أما نحن في واقعنا اليوم، فقد قعدنا قعود العاجزين، ومددنا أيدينا نستجدي، حتى الكلمات والمصطلحات ركضنا وراءها لاهثين. وفي بعض بقاع الأرض يُسحق الإنسان وتُسحق كرامته، وتخنق في جوفه الكلمات وتموت في رأسه الأفكار، وتطوى عليه السجون فيُنسى فيها حتى يموت. الإنسان أرخصُ بضاعة فيها، في ديار الحضارة والرّقي، في حضارة القرن العشرين، حيث تقتله المخدرات والشهوات فيغيب فيها. فلا عجب إذا سَحَرَ بعضَ الناس بريقٌ خُلّب من الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية والحداثة التي مصدرها الغرب، و «التموضع الزمكاني».

وكلهـا تدَّعي العدالة والحريَّة وحقوق الإنسان، والإخاء الإنساني والمساواة، والأمن والسَّلام، وغيرَ ذلك من الرايات والشعارات ترفعها ثمَّ

تمضي لتخدِّر الناس، ثمَّ تسقط هٰذه الرايات كلها على أبواب فلسطين وأفغانستان، وفي ساحات دار الإسلام! هناك تسقط الرايات ليُطرَد شعب كامل من أرضه، أرض الإسلام، ولتُسلَّم لليهود المهاجرين الذين لا يربطهم بالأرض نسب ولا تاريخ، ولا حق قديم ولا جديد! إجماعٌ دوليّ تلتقي فيه كلُّ المتناقضات، والحداثة التي صدرت من الغرب هي مُلتقى المتناقضات.

أما العجب العُجابُ فهو أن يظهر منا، من أنفسنا، من أهلينا، من يقول إن لليهود حقّاً في فلسطين، ولانجد صهيونيّاً واحداً يُقرُّ بحقٍّ لمسلم أبداً. هذا هو أثرها في عالم السياسة.

وأعجب من ذلك أن يمتدَّ ضغط «الحداثة» إلى مختلف ديار المسلمين، وإلى مختلف ميادين نشاطهم، حتى يتسلَّل خدراً لذيذاً ونوماً هادئاً حتى تضيع الديار وتطوى الحقوق!

ديار الإسلام هنا تستطيع أن تقدِّم للعالم حقيقة الحرية والعدالة في أعظم رسالة عرفها الإنسان. إن أُمة الإسلام تستطيع أن تنقذ البشرية كلها اليوم كما أنقذتها سابقاً، إذا صدقت ربّها وأوفت عهدها.

قد نجد في الديمقراطية في بلاد الغرب بعض المظاهر التي يحتاجها الإنسان في واقعه، والتي يبرز أثرها وأهميّتها حين نقارنها بما يجري في كثير من أقطار ما يُسمَّى «العالم الثالث». وأهم هذه المظاهر: الإدارة والنظام، والتطور الصناعي والعلمي. ولكن هذه جهود بشرية بلغتها شعوب مختلفة عبر التاريخ في ظل عَقائد مختلفة. ولقد قدَّم المسلمون نماذج رائعة في تاريخهم الأول. فلماذا لا ينهض المسلمون اليوم فيعلنون هذه المظاهر

كلها باسم الإسلام الذي سبق فضله في إعلانها للبشرية :

﴿ . . . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ . (المائدة : ٥٠)

٥ ـ الحداثة في الفكر والأخلاق:

لقد كان فيما عرضناه صورة كافية عن المنحى الخلقي للحداثة، منحى يرسمه الجنس الملوّث والشهوة المتفلتة والخمور والمخدرات. وأكتفي هنا بذكر مثلين عن التصور الخلقي. الأول يكشف عن انحلال روابط الأسرة وتمزّقها. فهذا «جورج هيم» يكتب في مذكراته فيقول: «كان باستطاعتي أن أصبح واحداً من أعظم الشعراء لو لم يكن لي مثل هذا الأب الخنزير»[1]. وهو من رجال الحركة التعبيرية.

ومثل آخر يبيّن لنا إسفاف النقد الأدبي حين تتناوله «البنيوية» والحداثة. فحين يحلّل كمال أبو ديب تحليلاً بنيوياً أبياتاً رائعة لابن الرومي :

حَيّتْك عنا شَمالٌ طاف طائفها بجنّة نفحتْ ريحاً وريحانا
هَبّت سُحَيراً فناجى الغصن صاحبه مُوَسوساً وتداعى الطير إعلانا
ورقٌ تُغنّي على خُضرٍ مُهَدَّلة تسمو بها وتمسُّ الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن مِن هزّه عطفيه نشوانا

حين يسمو ابن الرومي في هذه الأبيات لفظاً ومعنى وصورة، وحين يُعبّر هو عن حركة الغصون بالسموّ «تسمو بها . . .»، فإن كمال أبو ديب يهبط إلى أسفل سافلين وهو يحلل هذه الأبيات بُنيوياً. ونقتطف من

(١) كتاب الحداثة: (ص: ٢٦٩).

هبوطه وسوء أدبه فقرة: «أخيراً تتلاقى في القصيدة حركتان ضديتان يجسد تلاقيهما النهائي توحُّد التصوّرات. . . هاتان الحركتان هما الحركة الأفقية. . . . ثم الحركة الشاقولية. . . . تنضحان بِنَشْوَة جنسيَّةٍ تنبع من حركة الاتصال الأفقية، والاهتزاز الشاقولي الصاعد الهابط». لقد هبط أبو ديب ولم يصعد أبداً.

والبنيوية ابنة الحداثة، أو شكل من أشكالها. يقول كمال أبو ديب عنها: «ليست البنيوية فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود. ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه. ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينَه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يُعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفنّ الحديث وبعد أن رسم «بيكاسو» كراسيه ـ كما يُعبِّر «روجيه غارودي» ـ أصبح محالاً أن نرى كرسيّاً كما كان يراه الذين سبقوا «بيكاسو». ومع البنيويه ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود ـ الإنسان، الثقافة، الطبيعة ـ كما كان يُعاينه الذين سبقوا البنيوية»(١) ضلال صريح وتيه وظلام! فالإسلام جاء قبل البنيوية بنظرته الإيمانية المتميّزة للوجود كله. فهل أصبح كمال أبو ديب يُنكر نظرة الإيمان ووضاءة الإسلام ودخل في ظلمة البنيوية وارتبط

---

(١) كتاب جدلية الخفاء والتجلّي للدكتور كمال أبو ديب. (ص: ٧، ٨)

مع الحركتين الأخريين، ارتبط مع ماركس وبيكاسو وأمثالهما؟!

إنه تَجَلٍّ دون خفاء، كما سمى كمال أبو ديب كتابه، تجلٍّ للضلالة ووضوح في العماية! إنّـه، كما قال، «تثوير جذريّ لمعاينة الوجود كله»، فهل هذه كلمة الفتنة والشرك؟!

من هذا الفكـر، من هذا التثـوير الجذري، تنبع أخلاق حداثيّة جديدة تمزِّق الأسرة ووشـائجهـا، وتـطلق المرأة سلعة رخيصة تتقاذفها أمواج الجنس، تحت رايات الحرية والتقدم والمساواة.

ولابد هنا أن نشير إلى أن العالم اليوم بدأ يشعر بهول الجريمة التي ارتكبها بحق المرأة، والجريمة التي ارتكبها بنشر الخمور. والعالم يحاول أن يعالج ذلك بأساليبه المادية. وقد أشرنا إلى مرض «الإيدز» وأسلوبهم في علاجـه. ويحسن هنـا أن نقتبس فقـرات من كتـاب «البـيريسترويكا» لجورباتشــوف: «ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المميِّزة المتعلقة بدورها، أمّاً وربّة أسرة. كما كدنا ننسى وظيفتها التي لابديل عنها مربيّة للأطفال. فلم يعد لدى المرأة، العاملة في البناء وفي الانتاج وفي قطاع الخدمات وحقل العلم والإبداع، ما يكفي من الوقت للاهتمام بالشئون الحياتية اليومية، كإدارة المنزل وتربية الأطفال، وحتى مجرّد الراحة المنزلية. وقد تبينّ أن الكثير من المشكلات في سلوكية الفتيان والشباب، وفي قضايا خلقية اجتماعية وتربوية وحتى إنتـاجية، إنـما يتعلق بضعف الـروابط الأسرية والتهـاون بالـواجبات العـائلية»[1]. ويقـول: «المشكلة الأخـرى التي لدينا هي ممارسة المرأة

(١) كتاب البيريسترويكا لجورباتشوف. (ص: ١٦٦).

للأعمال المجهدة التي تنعكس سلباً على حالتها الجسدية»[1].

أمـا بالنسبـة للخمور فهو يقول: «إننا سنستمر بحزم في مكافحة ظاهرة السكر وتعاطي الخمور. وتمتدُّ جذور هذه السيئة الإجتماعية بعيداً في التاريخ، وهي قد أصبحت عادة ليس من السهل مكافحتها....»[2].

من السهل أن يكتشفوا الأضرار الخطيرة الناتجة عن أسلوب معاملة المرأة، وعن انتشار الخمور في عام ١٩٨٨م. ماكان أجدر بالإنسان أن يسمع كلام الله الذي أوحى به إلى أنبيائه ورسله قبل آلاف السنين، فيوفر على البشريّة هذه المآسي كلها.

أما وقد عرفوها فهل يستطيعون بأساليبهم معالجة هذه الأخطار؟!

أما في الغرب فقد رأوا كلَّ هذه الأخطار والأمراض والمآسي، ولكنهم يحاولـون العـلاج على نفس الأساليب الحداثية المادية، في أجواءِ لهيب الشهوة والجنس! وفي روسيا سيعالجونها بنفس المادّية الحداثيّة، المنعزَلة عن الإيمان والتوحيد. فأنى لهم أن يصيبوا نجاحاً، إلا بَريقاً خُلَّباً سرعان ما يطويه ظلام الإلحاد.

إن إلغاء هذه المفاسد من حياة المجتمع لا يتمّ بإصدار قرار في جوّ مقبل على الشهوة نافرٍ من الإيمان. إنها تحتاج إلى معالجة حقيقية تستوعب طاقة الأمة وإمكاناتها ووسائلها تربيةً وتعليماً، ومعالجةً وبناءً. إنها تحتاج إلىَ ذلك كله من خلال عقيدة وإيمان، تدخل النفوس وتعمُر القلوبَ، وترجو الله واليوم الآخر.

(١) المرجع السابق. (ص: ١٦٧).
(٢) المرجع السابق. (ص: ١٤٥).

الفصل الثالث

الحداثة بين المادّية الرأسمالية والمادية الماركسية

بين الرأسمالية والمادية الماركسية صراع طويل. هو في حقيقته صراع مصالح غلَّفته القوى المتصارعة بالفكر والعقائد، حتى بدا أن الصراع هو صراع فكريّ. ومن خلال هذا الصراع كان الناس يذهلون حين يجدون نقاط لقاء اجتمعت فيها هذه القوى. والحقيقة أنه لاعجب في ذلك أبداً. فهنالك دائماً ميدانان واسعان للقائهما: لقاء آنيّ متقطع للمصالح المتصارعة، ولقاء ممتدّ في النظرة المادِّية للحياة. الرأسمالية التي صنعت الديمقراطية صَنعتْ معها العلمانيّة، حتى أصبحت ملازمةً لها ومعْلَماً رئيسيّاً لها. لقد صنعَتْ العلمانيّة لتعزل الدين عن الحياة، ولتُنصِّب العلم إلهاً مع آلهة أُخرى تتزاحم اليوم في واقع الإنسان. الديمقراطية لا تمنعك من أن تتخذ إلهاً مع آلهتها، ولكن لابد من آلهتها. فمن هنا جاءت النظرة المادية للحياة لتقود ميادين النشاط الإنسانيّ كله. أما الشيوعية فقد كفرت بالله ونصَّبت إلهاً واحداً هو الإنسان نفسه، الإنسان الذي هو مدار النظرية المادية الجدلية والمادية التاريخية. وفي هذا الميدان الماديّ تلتقي الرأسمالية والشيوعية لقاءً واسعاً ممتدّاً، لقاءً حَملتْه «الحداثة» كما عرَّفها رجالُها بكل أبعادها وآفاقها.

من هنا نرى كيف أن الحركة الحداثيّة «المستقبلية» استطاعت أن تتفاعل في إيطاليا مع القومية الفاشية بكلّ جنونها، واستطاعت أن تعيش في روسيا مع الحزب الشيوعي. وكلاهما، هنا وهناك، شنّ الحرب نفسها على الدين واللغة والتراث كما رأينا سابقاً.

الديمقراطية التي يحملها الغرب ويدعو لها بكل قوته لا تقول لك مباشرة اترك دينك، بل تقول لك اختر النظام الذي تريده لحياتك بعد أن تطبق ديمقراطيّتنا. ويقولون بوضوح إن أهمَّ ما فيها حرّية الفرد كما يرونها هم، ومساواة المرأة بالرجل مساواة كاملة، وإطلاق حرية المرأة بالزنا وإطلاق حرية الرجل بالزنا، على أن يحمي القانون والدستور جميع هذه الحريات. وكذلك حرّية كل إنسان في أن يعبد الإله الذي يريده، ولا حق لأحد أن يعترض على أحد، والقانون يحمي ذلك كله في ظاهره. ولكنه من خلال الأساليب الديمقراطية ذاتها وكواليسها، يدفعون هذ ويكبحون ذاك. وبعد ذلك إن شئت أيها المسلم فاعبد ربك وكن مسلما في هذا الجو «الديمقراطي البهيج» لاتقل إن الخمر حرام والزنا حرام، والحجاب واجب، لاتقل هذا، فدع كلّ إنسان يمارس حرّيته! وحين يستدعي الأمر فإن خصائص الديمقراطيّة هذه تُفْرَض بالسلاح والقوة! إنها «الحرّية» وإنها «الديمقراطية»!

وقد تعلمت روسيا هذا الأسلوب الحداثيّ مؤخراً، وأعلنت حرية الأديان، وفرح النائمون كلهم! وهكذا تحمل الديمقراطية والشيوعية معاً الحداثة في حياة الناس سلماً أو حرباً، وهكذا تلتقي العلمانية والإلحاد، والديمقراطية والديكتاتورية.

المـادية الجدلية تعتبر أن المحتوى الحقيقي للتطور هو الصراع بين المتناقضات. لايوجد سلم أبداً. إنه صراع، وإن الصراع وحده هو الذي يولـد التطور فلماذا يدعون إلى السلم العالمي؟! أليس من الأعدل أن يدعـوا إلى الصراع العـالمي ليكونوا أصدق مع أنفسهم؟! وأصدق مع مايفعلون حقيقة؟! والحداثة تعتبر التطور كذلك هو التغيير المستمر الناتج عن التناقضات الثنائية والجدلية.

المـادية الجـدليَّة تعتبر أنه عند دراسة أي حادث فلابد من دراسة الظروف والعلاقات فهي وحدها التي تهم. ولقد سبقت معنا نصوص الحداثة التي تشير إلى نفس الخصائص هذه فيها. ونسأل المادية الجدلية ونسأل الحداثة، على أي أساس تدرس الظروف والعلاقات، فكل عقيدة ودين تقوّمها على نحو مختلف؟! وكلُّ تقويم يختلف من زمن إلى زمن، ومن أمة إلى أمة. والأحداث والظروف كذلك مرتبطة كلها بسنن الله في الكـون، وبقضـائه وقدره، فأين يُطوى هذا كله؟! ومع كل حادث لا تُدرس العلاقات والظروف وحدها، بل يجب دراسة عناصر الحادث لا علاقاته فحسب! فكيف يترك هذا كله؟!

ترى المادية الجدلية أن الطبيعة في حالة حركة دائمة وتغيُّر مستمر. وتقرر كذلك أنه ليس من شيء لا يُغلب ولا يُقْهر إلا الشيء الذي يولد ويتطور. ويعنون بذلك الإنسان. إنه الكبر والغرور في أسوأ حالاته.

والحداثة تقرر الشيء ذاته، وقد سبق ذكر نصوصها على ذلك. ويردّ القرآن الكريم على ذلك كله ليُبّين أن الحركة والسكون والثبات والتغيّر كل ذلك بأمر الله، ليُرِيَنا آيات بينات، تدلُّ على عظمة الله وقدرته، ربّ

السموات والأرض وما بينهما، ورب العرش العظيم، ربّ كلّ شيء.

وتعتبر المادية الجدلية أن التطور هو حركة تنتقل من تغيّرات كميّة ضئيلة وخفيّة إلى تغـيّرات ظاهرة كيفيّة، سريعة فجائية. ويستشهدون على ذلك بغليان الماء وتحوّله إلى بخار ويريدون أن يطبقوا هذا على تغيّرات المجتمع. وقد سبق أن مرّ معنا في الصفحات السابقة نصوص الحداثة التي تشير إلى ذلك. وهذا مثل على ماسبق أن ذكرناه من أنهم يأخذون جزئية في الحياة، في بيئـة محدودة، وزمن محدود، وقـدرات محدودة، ليجعلوا منها حقّاً مطلقاً. ثمَّ يناقضون أنفسهم حين يجعلون من أسس الحداثة والماركسية عدم وجود حق مطلق أو قانون مطلق، وأن كلَّ شيء متغيّر!

والمادية الجدلية تفسِّر الكون على أنه ذاتيّ الجوهر، مستغنياً عن خالق أو موجـد له. والحـداثـة تشـير إلى ذلك بأكثر من أسلوب. أما الحجة والدليل فلا يقدّمونها على دعواهم الباطلة تلك. وحسبهم أنهم وضعوا هذا التصـوّر من عند أنفسهم، ثمَّ جعلوه حقّاً مطلقاً حسب وهمهم. هكذا قال الفيلسوفان اليونانيان ديمقريطْ وأبيقور، وهكذا قال الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر لاميترى وغولباخ وديدرو، وهكذا قال الألماني لودفيج فيورباخ، ثمَّ تبعهم ماركس وإنجلز، ونصُّوا جميعهم على أن المادية تعني أن العالم الذي يحيط بنا لم يخلقْه أحد. وهكذا قال لينين. والحداثة تبّنت النظرة المادية، ولقد سبقت الإشارة إلى موقف الحداثة من الـدين. وحـين يرفض الإسـلام النـظرية المـادية من جذورها وساقها وفروعها، فإنه يرفض النظرية المثالية التي تعتبر الروح أسبق من المادة،

ثمّ يختلفون في أمر الروح ويتيهون في كفر وضلال مثل الماديين.

وفي واقع الممارسة فإن الرأسمالية والديمقراطية تمثّل فلسفة مادِّية مهما رفعت بعد ذلك من شعارات نظرية. وتصبح «الحداثة» في حقيقتها ساحة لقاء المادية الرأسمالية والمادية الماركسية.

الفصـل الرابع

أثر الحداثة في الواقع الإسلامي

الأُمة المسلمة صاحبة رسالة في الحياة، رسالة ربانية خصّها الله بها، رسالة الإسلام. فالأَصل إذن أَن تكون الأُمة المسلمة كلُّها، بمختلف ديارهـا ومؤسساتها وطاقتها حاملة للدعوة الإسلامية في الأَرض، تدعو النّـاس كلهم إليها من جميع منابر الأَرض، فنكون عندئذ نحن الذين يقدّمون ويعطون ويؤثّرون.

أَما حين تتخلّى الأُمة عن رسالتها، أَو تنحصر المهمة في طائفة وتغفو سائـر الأُمَّـة، فعنـدئذ تصبح هي التي تأخذ وتتلقّى، وتتأَثر وتخضع، وتصبح أَبوابها مشرعة لكل غازٍ.

لاننكـر أَنه كان للحداثة بمختلف اتجاهاتها ضغط كبير على واقـع المجتمـع الإسـلامي، وأَن رجالها، أَو بعضهم، احتلوا مراكز في واقـع المجتمع في مختلف بلاد المسلمين جهاراً أَو متستّرين.

ولا ننكر أَن ضغط الحداثة مازال يزداد في واقعنا الإسلامي اليوم. لقـد استـطاع رجـال الحـداثـة «المنتسبـون» إلى الإسـلام، أَو رجـالها المسيحيون، المقيمـون في دار الإسـلام، أَو الـذين عادوا بعـد انتهـاء ابتعاثهم إلى الغرب كما حدث في أواخر القرن التاسع عشر. لقد استطاع هؤلاء أَن يتركوا أَثراً خطيراً في واقعنا بإصرارهـم على الانحراف من ناحية،

وبما وجدوه من دعم وتأييد من السلطة أو من المؤسسات الأجنبية المعادية للإسلام، أو من الدول المسيحية نفسها المحتلة لبلادنا أو بعد انتهاء احتلالها.

عاد رفاعة رافع الطهطاوي في أوائل القرن التاسع عشر من بعثته في فرنسا ليدعو إلى التبعية المطلقة لأوروبا. وجاء سلامة موسى وطه حسين وجبران خليل جبران لا يقلون كثيراً عن رفاعة في دعوته كلها أو في بعض جوانبها الرئيسية. وكثر رجالها ونموا حتى ظهر أدونيس وزوجته خالدة سعيد، والدكتور كمال أبو ديب، وعبدالله العروي وصلاح عبد الصبور، وعبدالعزيز المقالح وكثير غيرهم. ودعت «نازك الملائكة» إلى الشعر الحرّ، وتلقّف الحداثيون هذه الدعوة فغذوها وانتشر الشعر الحرّ وأصبح له دعاته.

كان من أخطر آثار الاتجاه الحداثيّ في واقع الفكر الإسلامي هو ما تسلل من أفكار إلى ساحة العمل الإسلامي تحت مختلف الرايات والشعارات. أصبحت الديمقراطية مطلباً إسلامياً، والإشتراكية مطلباً إسلامياً كذلك، وأخيراً ظهر من يهوّن من أمر الحداثة ويدعو إلى حداثة إسلامية، وقد يطلع علينا غداً من ينادي بالبيروسترويكا الإسلامية. وظهر ما أسموه «المسلم المعاصر» والإسلام العصري، والإسلام اليساري، واليسار الإسلامي، حتى امتلأت الساحة الإسلامية بالمتناقضات التي يصعب تعدادها هنا.

يضاف إلى ذلك ما ظهر من حركات تدعو إلى التوفيق بين الإسلام وغيره من الديانات. وربما عقدت ندوات وسافرت بعثات، ونسوا

جميعهم قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾. (البقرة: ١٢٠)

ومما ساعد على هذا التأثير، كما نعْتقد، الهزائم المتتالية التي مُني بها المسلمون في العصر الحديث، والتخلف الواضح، والجهل الممتدّ الواسع بين عامة المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله. وهنالك سبب آخر كذلك هو أن المسلمين لم يقدِّموا مبادئهم من خلال تفصيلات جزئية توضح صدق التطبيق والممارسة في الواقع. وأما الغرب فإنه يقدم نظماً متكاملة بضلالها وفسادها وزخارفها في أدق التفاصيل والجزئيات. فحين ندعو إلى الشورى فدعوتنا لا تتجاوز المبادىء العامة التي عرضها منهاج الله وممارسة النبُوة لها وممارسة الخلفاء الراشدين، دون أن نجد في واقعنا ممارسة عملية إيمانية ترقى إلى مستوى حاجة الناس. فتأتي الديمقراطية لتشعر الناس بأنها تلبّي حاجاتهم، فيقبلون عليها، وقس على ذلك الوضع الاقتصادي. حتى أصبحنا كلما ظهر مصطلح جديد، حق أو باطل، هرعنا لنثبت أن الإسلام قد سبق إلى ذلك. والناس لا تهمهم هذه الحقيقة الفكرية التاريخية إن صحّت، ولكن يهمهم واقعهم وما يعالجه.

وانتشر الشعر الحرُّ كذلك بين بعض الشُّعَراء المسلمين، تابعين مقلِّدين متأثِّرين، دون أن يتأملوا أو يتدبَّروا، ودفعهم المنطق الحداثيّ نفَسه، منطق السعي إلى الجديد، ومحاولة الانفصام عن الماضي، وادّعاء الملل من القافية المتكررة والوزن المتكرر، كما ادعى «ماياكوفسكي» من

قبل أنه ملَّ شروق الشمس وغروبها المتكررين. انتشر إذن الشعر الحديث وتسلل معه المنطق الحداثي تسللاً خفيّاً! وكان السبب في معظم الأحيان الجهل وهبوط الموهبة الشعرية.

اضطراب الميزان بين أيدي بعض المسلمين ساعد كثيراً على تسلل الأفكار والأسلوب والاتجاه. ولا نستطيع في هذه العجالة أن نفصِّل أكثر من ذلك، مع يقيننا بأن هذه القضية تحتاج إلى دراسة متأنيّة مفصّلة، لأهميتها وخطورتها، ولندرس الواقع دراسة تقوم على ميزان عادل أمين.

ولقد تسللت كلمات وتعبيرات ومصطلحات. وكان من أغرب ذلك شيوع بعض التعبيرات النصرانيّة لدى الشعراء المنتسبين إلى الإسلام، مثل: الصليب، القدّيس، إيقونة، وغير ذلك. وكذلك تسرب فكر نصراني من الإنجيل، أو مما شاع بين النصارى، إلى كتابات بعض المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام. وإنك لتجد أمثلة كثيرة على ذلك عند الأدباء الحداثيين وكتابهم، وبخاصة عندما يتعرّضون لبعض نبأ الغيب، مثل علاقة آدم وحواء، وكيف أغراهما الشيطان وهما في الجنة، فاعتبر بعضهم أن حوّاء هي التي أغوت آدم، وحسبوا أن هذا المفهوم من القرآن أو ادّعوا ذلك. وأمثلة أخرى يضيق عنها هذا البحث الموجز.

ولكن التأثير الأخطر هو التحويل الجذري للفكر والأدب، وقلب الموازين كلها في فئة من الناس، خلقهم الله كما خلق غيرهم على الفطرة، فجاءتهم شياطين الحداثة فاجتالتهم، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ:
عن عياضٍ المجاشعي: «أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أُعلِمكم ما جهلتم مما علّمني، يومي هذا. كلُّ مالٍ

نحلته عبَداً حلالٌ. وإني خلقت عبادي حنفاءَ كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمَتْ عليهم ما أَحللت لهم، وأَمرتهم أَن يشركوا بي مالم أُنزّل به سلطاناً. . .». (رواه مسلم)[1]

ولنستمع إلى بعض الأمثلة على ذلك. فهذا عبد العزيز المقالح يقول:[2]

كان الله ـ قديماً ـ حُبّاً، كان سحابة.

كان نهاراً في الليل.

إلى أن يقول:

صار الله رماداً. . . . .

صمتاً. . . . .

ولن يعجز الحداثيون عن تأويل سوء الأَدب هذا والكفر الصريح بوسيلة جدلية أو أُخرى. ولكن الجدل هذا والتأويل كله مراء وكفر وضلال.

وصلاح عبد الصبور يقول:[3]

«هذا زمان السأم، نفخ الأَراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين اليتي رجل سأم . . . . . .».

هبوط في اللفظة والتعبير والأُسلوب، وهبوط في الصورة والمعنى! سهيل السيد أَحمد من الأَردن في مهرجان جرش يقول فيما يسمى

(١) صحيح مسلم. كتاب الجنّة (٥١). باب (١٦). حديث (٢٨٦٥/٦٣).

(٢) كتاب إضاءات نقدية ـ مجموعة من الكتاب العرب عن عبد العزيز المقالح. (ص: ١١).

(٣) ديوان أقول لكم لصلاح عبد الصبور (ص. ٦٥).

قصيدة : [1]

«باسمك، (يقصد العربيّ)، تعلن هذه النواقس للسماء، باسمك تقترب الساعة أو تبدأ المرحلة،» هل هذا شعر أم نثر أم لغو! وباسمك هنا يخاطب بها العربيّ!.

ويقول: عبد الرزّاق عبد الواحد ليبينّ الوثنيّة في وضوحها: [2]

لك وحـــدك أملك أن أرخّص نفسي، لك وحـدك أحني رأسي، لجلالك وحدك، أرفع مخموراً رأسي، مترعة بدمي، مختوم باسمك حتى ترفع الأوراق، ياذا الملكوت باسمك نبدأ. واسمك آخر ما ننطق حتى نموت. باسم (العراق)!

---

(١) كتاب الشعر في جرش. (ص: ٢٢٥).

(٢) المرجع السابق. (ص: ٢٩٥).

الخلاصة

أرجو أن تكون الخصائص الأساسية للاتجاه الحداثي قد وضحت خلال هذا العرض، كما وضح ردُّها إلى منهاج الله ردّاً عادلاً إن شاء الله. وأرجو أن يكون التقويم «لنظرية الحداثة» قد استكمل عناصره من خلال هذا البحث، حيث أقررنا أولاً عناصر التقويم وأسسه في أربع نقاط. وعرضنا بعد ذلك الاضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته، لنبيّن أن الاضطراب والغموض هما من الخصائص الملازمة للحداثة حتى في مصطلحها. وعرضنا كذلك مدى الاضطراب والتناقض في التعريف.

ثم حاولنا أن نحدِّد اتجاه الحداثة ومدى مفارقته لنهج الإيمان. وعرضنا أهم خصائص نهج الإيمان لتكون هذه الخصائص بارزةً قوية عند عرض خصائص الحداثة. وعرضنا بعد ذلك الحداثة في مختلف الميادين، ثم أثرها في الفكر الإسلامي الحديث.

لقد أوجزنا كثيراً في هذا العرض، آملين أن نكون قد بلغنا درجة معقولة من الوضوح. لقد سبق أن فصّلت في بعض هذه القضايا في كتابي «الحداثة في منظور إيماني» في طبعته الثالثة.

ولكننا في هذه الخلاصة والنتيجة نرجو أن نؤكد بعض القضايا الهامة بإيجاز.

فلا أعتقد أن هنالك «نظرية» محددة للحداثة، بالمعنى الحقيقيّ للنظرية، ولا أعتقد أن هنالك منهجاً محدداً للحداثة بالمعنى الدقيق

لكلمة منهج. فإذا استعملتُ هذه أو تلك فإنه من باب المجاز والإيجاز. ولكن يمكن أن نقول إن هنالك اتجاهاً حداثيّاً، وخصائص حداثية، تنفي بتناقضها واضطرابها، وبتقطعها والتوائها وجود النظرية أو المنهج.

ويمكن أن نوجز أهم هذه الخصائص بالنقاط التالية:

١ ـ غياب التصوُّر الإيماني والتوحيد عن كل أنشطة الحداثة وميادينها، ومحاربتها لهذا النهج وللاتجاه الديني عامة بإصرار وإجماع وعنف، إلا حين يضطر الواقع والمجتمع أحدهم إلى إبراز صلته بالإسلام، حماية لنفسه ولحداثته.

٢ ـ تبّدل الآلهة التي نصبوها: العقل، العلم، الطبيعة، الإنسان، ومختلف الأهواء والشهوات، وذلك بأخذ جزئيّة في الحياة من خلال علم محدود، وزمن محدود، وبيئة محدودة، ليجعلوا منها حقّاً مطلقاً بادعائهم، ثمّ لا يلبث أن ينهار ادعاؤهم، أو يُبدَّل، فتنهار معها أُطُرٌ ونماذج وآلهة، من خلال هوى يسيطر سرعان ما يغلبه هوى آخر.

٣ ـ ولّد هذا التبدّل وهذا الانهيار للأطر والنظم صدمات نفسية عنيفة لدى بعض المفكرين وبعض الناس عامة. وأورثت هذه الصدمات لدى آخرين شكّاً وحيرة، وقلقاً واضطراباً، وتوتُّراً وحُمَّى. وانصَبّ ذلك كله بصورة رئيسية على الدين واللغة، والمؤسسات والعادات، والأرحام والروابط والصلات، والأسرة والبيت.

٤ ـ وأورث ذلك كِبْراً وغُروراً في الفكر، وحيرة وشكّاً في العلوم، فاندفعوا إلى غموض كثيف يخفون به ما يعانون من كبر وحيرة وقلق.

٥ ـ أورث هذا كله كذلك انحلالاً خلقياً وتفلّتاً كبيراً، تغذّيه الحرّية الفردية المتفلتة، ليغوصوا في أوحال الجنس الملوَّث وجرائمه، والخمور والمخدَّرات، وتُغذّيه نزول المرأة إلى المصانع وميادين الحياة كلها لتمارس الحرية الفردية المتفلتة.

٦ ـ لقد امتدت الثورة إلى الموقف من الحياة والكون، حتى دفع الكبر والغرور والاضطراب النفسي بعض رجال الفكر إلى أن يحسبوا أن الإنسان يستطيع أن يقهر الطبيعة. ولكن سنن الله مضت عليهم لتفجأهم وتقهرهم، فيطويهم الانتحار أو الموت، وتظل سنن الله غالبة قاهرة ماضية.

٧ ـ من خلال هذه الأجواء المضطربة المشحونة المظلمة قام صراع حادٌّ بين أصحاب المصالح وأرباب الاستغلال أدّى إلى حربين عالميتين مدمِّرتين ذهب فيها عشرات الملايين من القتلى والمشوَّهين، وما يزال هذا الصراع ممتداً حتى اليوم من خلال فوران الشهوات كلها وغليان الأحقاد، لايخفِّف منها إلا مداراة متبادلة ومراءاة يفرضها الواقع وأخطاره.

٨ ـ الحَدَاثة تمثِّل منهجاً عامّاً في رؤية الحياة والكون ولا تنحصر في الأدب، كما رأينا. ولقد مرَّ تعريف كمال أبو ديب وغيره. ولكنها رؤية متناقضة مضطربة، على كل حال.

٩ ـ الحداثة تدعو إلى التغيير المستمر في كلّ شيء. ولقد مرَّ معنا في أكثر من موقف توضيح لهذا الاتجاه. ولا شيء ثابت عندهم في الحياة أبداً

١٠ ـ يقول رجال الحداثة كلهم إنها تقوم على مبدأ التناقضات، والتناقضات الثنائية. يقول أدونيس: «التحوّل يفترض الذروة والهاوية، الماء والنار، الرفض والقبول. . .»[١]. ويقول كمال أبو ديب: «. . . . ومع البنيوية ومفاهيم الزمن والثنائيات الضدية. . . .»[٢].

١١ ـ تقوم الحداثة كذلك على مبدأ العلاقات بين الأشياء حين دراستها للأشياء، مع إهمال الشيء ذاته في مجال وظيفته ودوره. وأدى هذا التصور إلى الدعوة إلى إفراغ الكلمات من معانيها في المعاجم، وإلقاء المعاجم. . . .! ويقول كمال أبو ديب[٣]: «. . . . والإصرار على أن العلاقات لا العلامات هي التي تعني».

١٢ ـ تربط الحداثة نفسها بالجدلية والماركسية. يقول أدونيس[٤]: «يطرح التصوّف فكرة الإنسان الكامل. ربما أمكن أن نقابلها بفكرة الإنسان الكلي في الماركسية ـ الشيوعية». ويقول: «إنَّ القصيدة الجديدة تركيب جدلي رحب»[٥]. ويؤيد هذا ماسبق أن أوردناه من تعريف البنيوية لكمال أبو ديب، وغيرها من وجهات النظر والآراء. وكذلك فإن تأكيدها على التغيير المستمر، وعلى التناقضات الثنائية، وعلى محاربة الدين، إن هذا كله يكوّن لقاء واسعاً بين الحداثة والماركسية. ولكن هذا اللقاء مع الماركسية لم يكن يمنع لقاءها مع الرأسمالية والديمقراطية،

---

(١) مقدمه في الشعر العربي (ص: ١٢١).
(٢) جدلية الخفاء والتجلي (ص: ٧، ٨).
(٣) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ٧).
(٤) مقدمة في الشعر العربي. (ص: ١٣٣).
(٥) مقدمة في الشعر العربي. (ص: ١١٤).

حيث تكون محاربة الدين والتراث كله واللغة هي نقطة اللقاء الأساسية. ولا يغيّر هذه الحقيقة محاولات بعض الحداثيين لإخفائها بالتستّر بالدين.

١٣ ـ الحداثة تمثّل اتجاهاً قديماً في حياة البشرية، اتجاهاً متقطعاً، ولكن الإيمان يُمثّل خطّاً مستمراً ممتدّاً تحمله الطائفة الظاهرة في الأرض.

١٤ ـ الحقيقة الهامة التي نخرج بها من هذه الدراسة والتقويم، هي أن البشريّة كأنّها ما تزال تنتظر طلوع الإسلام العظيم بالإيمان والتوحيد، والطاقات المؤمنة الصادقة مع ربّها، الصادقة مع نفسها، الصادقة مع أمّتها، الصادقة مع الإنسان في الأرض، لتُقَدِّم له الحلول الحقيقية بتفاصيلها الجزئيّة لمشكلاته ومعاناته، ولتُعيد للإنسان كرامته التي خلقه الله عليها، والتي سحقتها حضارة الإنسان بكلّ مذاهبها المنحرفة، والتي لا يستطيع الإنسان أن يستعيدها أبداً إلا بالإيمان الحق والتوحيد الصادق، وبالعبوديّة الصادقة لله ربّ العالمين، ربّ العرش العظيم، وبالوفاء الأمين لعهده مع ربه، عهده الذي أخذه الله في عالم الغَيب من ذريّة بني آدم كلهم، «**وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم**»؟!

ونختم كلمتنا بتقديم التعريف الذي نخلص إليه من خلال هذه الدراسة والتقويم:

تمثّل الحداثة في العالم الغربي والتي انتشرت في العالم الإسلامي، كما يرسمها واقعها وفكرها وممارساتها، الصورة المنحرفة لسعي الإنسان إلى التغيير، وسعيه وراء الجديد، سعياً متفلّتاً من الإيمان والتوحيد، غارقاً في ظلام الشرك والإلحاد، سعياً يجمع اليوم خبرة آلاف السنين في الانحراف والشذوذ، والأمراض النفسيّة والعصبية، والشرّ والفساد في الأرض،

وطغيان الشهوة الجنسيَّة المتفلّتة الملتهبة، وفورة سائر الشهوات المدمّرة، وسيطرة الخمور والأفيون والمخدِّرات، لتدفع هذه كلها، أو بعضها، ردود فعل نفسية عنيفة غير واعية، تظهر في الفكر والأدب والسلوك، في ثورة هائجة تحاول هدم الماضي بصورة مستمرة متتالية، حتى لا يبقى حسب ظن رجالها شيء ثابت في الحياة، في هجوم جنونيٍّ على الدين واللغة، وعلى التراث كله بما فيه من خير وشر، وثورة على الحياة، وعلى سنن الله في الكون، بين قلق الشك والريبة، وفجور الكبر والغرور. إنها تمثّل انحطاط الإنسان إلى أسفل سافلين، بما كسبت يداه.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾. (التين: ٤ ـ ٨)

ومهما فعلت الحداثة في خطها المتقطع، واتجاهها الملتوي المضطرب، فإن الإيمان ماض في الأرض، يمدّ الإنسان بالخير والإحسان، وستظل الفئة الظاهرة تجاهد في سبيل الله، ظاهرة ثابتة على أمر الله، قدراً من عند الله، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

يبدو أن مايؤخذ على الحداثة من عيوب وانحرافات قد اشتهر مع الأيام. ويبدو أن رجال الحداثة أنفسهم قدّموا أسوأ مثل للإنسان فيما نهجوا من سيرة في حياتهم وفيما بلغوه من خاتمة.

وحتى يستمرَّ النهج ذاته، وتمضي الخصائص ذاتها، في مسيرة جديدة تحاول محاولة غير صادقة التخلص من تبعة سيئات الماضي، فقد طلعت موجة جديدة أسموها «مابعد الحداثة».

في أول هذه الدراسة حددنا ميزاناً بقواعد أربع نطبقها على الحداثة وعلى مابعد الحداثة. فهل «مابعد الحداثة» أخذت بالإسلام، وأقرَّت به منهاج حياة في كل ميادين الحياة؟!

ليس عند الله دينان:

«إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ. . .». (آل عمران: ١٨).

ولكن الناس اخترعوا ألف دين، وانحرفوا عن جادة الحق، وتاهوا في ضلالهم بما كسبت أيديهم.

الحداثة ومابعد الحداثة وما قبلها، كل ذلك يوزن بميزان واحد هو منهاج الله، يوزن بأمانة وعدالة!

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضـــوع	رقـم الصفحـة

كتب للمؤلف

- ☐ دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الخامسة
- ☐ الشورى وممارستها الإيمانية ـ الطبعة الثالثة .
- ☐ الشورى لا الديمقراطية ـ الطبعة الثالثة .
- ☐ لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة .
- ☐ لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثانية .
- ☐ منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ الطبعة الثالثة .
- ☐ التوحيد وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الأولى .
- ☐ العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الأولى .
- ☐ إلى النهج والممارسة الإيمانية ـ الطبعة الثالثة .
- ☐ الصحوة الإسلامية إلى أين؟! الطبعة الأولى .

- ☐ الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية .
- ☐ الحداثة في منظور إيماني ـ الطبعة الثالثة .
- ☐ تقويم نظرية الحداثة ـ الطبعة الأولى .

- ☐ ديوان الأرض المباركة ـ الطبعة الخامسة .
- ☐ ديوان موكب النور ـ الطبعة الثالثة .
- ☐ ديوان جراح على الدرب ـ الطبعة الثانية .

- ☐ ملحمة الغُرباء ـ الطبعة الثانية.
- ☐ ملحمة القسطنطينية (فتحان) ـ الطبعة الأولى.
- ☐ ملحمة الجهاد الأفغاني ـ الطبعة الثالثة.
- ☐ ملحمة فلسطين ـ الطبعة الرابعة.
- ☐ على أبواب القدس ـ الطبعة الأولى.
- ☐ دراسة انتشار الموجات الالكترومغناطيسية المتوسطة (باللغة الإنجليزية) ـ الطبعة الأولى.

كتب تحت الطبع

- ☐ النية في الإسلام وبُعدها الإنساني.
- ☐ ملحمـــة الأقصـــى.
- ☐ ملحمـــة الهنـــد.
- ☐ جهاد الدكتور عبدالله عزام بين فلسطين وأفغانستان.

فسح وزارة الإعلام

رقم ٦٨٠ / م

وتاريخ ٢٦ / ١ / ١٤١٢هـ

الرياض ـ المملكة العربية السعودية

دار النحوي للنشر والتوزيع

تلفون وفاكس ٤٠١٠٢٥٧ ـ ص.ب ١٨٩١ ـ الرياض ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

طبع في

مطابع التقنية للأوفست

الرياض ـ تلفون ٤٨١١٩٨٨

مع هذا الكتاب

إذا كنا نأخذ على « الحداثة » من خلال تقويمنا لها مآخذ شتى عرضنا بعض نماذجها في هذا الكتاب ، وإذا كانت « الحداثة » في صورتها الأخيرة انطلقت من قمة الحضارة الغربية وتسـانـدهـا ، مزوَّدة بخبرة آلاف السنين الماضية وتجارب المجرمين السابقين في الأرض ، فإننا في الوقت نفسه نعترف بأن من أهم أسباب امتدادها في الأرض ، وفي عدد من ديار المسلمين أو فيها كلها ، هو هوان المسلمين أنفسهم وانحرافهم عن نهج الإيمان والتوحيد ، وعدم ارتفاعهم إلى مستوى رسالة الإسلام ليقدِّموا لأنفسهم ، ولأمتهم ، وللعالم كله ، الصورة المشرقة والحلول العلميَّة التطبيقية لمشكلات الإنسان اليوم .

لقد غلبت العصبيات الجاهلية اليوم على كثير من مرافق حياة المسلمين ، وامتدَّ التحاسد والتناجش والتباغض إلى أعماق النفوس ، في حياة الأفراد والجماعات والشعوب ، حتى تمزَّقت الأمة المسلمة فرقاً شتى ومذاهب متنافرة ، وحتى فُتحتْ ثغرات ، ثم أبواب واسعة ، يدخل منها شياطين الجنِّ والإنس ، يفسدون في أمة الإسلام الواحدة ، يقطعون الأرحام والوشائج الإيمانيَّة كلها ، ثمَّ يصوغون ذلك في زخارف تثير الهوى وتحرِّك الشهوات ، يغرِّي الناس في وحولها ، ثم يسمُّون ذلك تطوراً وتجديداً وحداثة !

إنها مسئولية الأمة المسلمة أن تقدم لعالم اليوم الصورة التطبيقية لنمو حياة الإنسان في الأرض ، وللمعاني الصادقة للحرية والعـ
أساس من منهاج الله والواقع البشريِّ ومشكلاته .

مطابع الفرزدق ٤٤٨٨٩٨٣